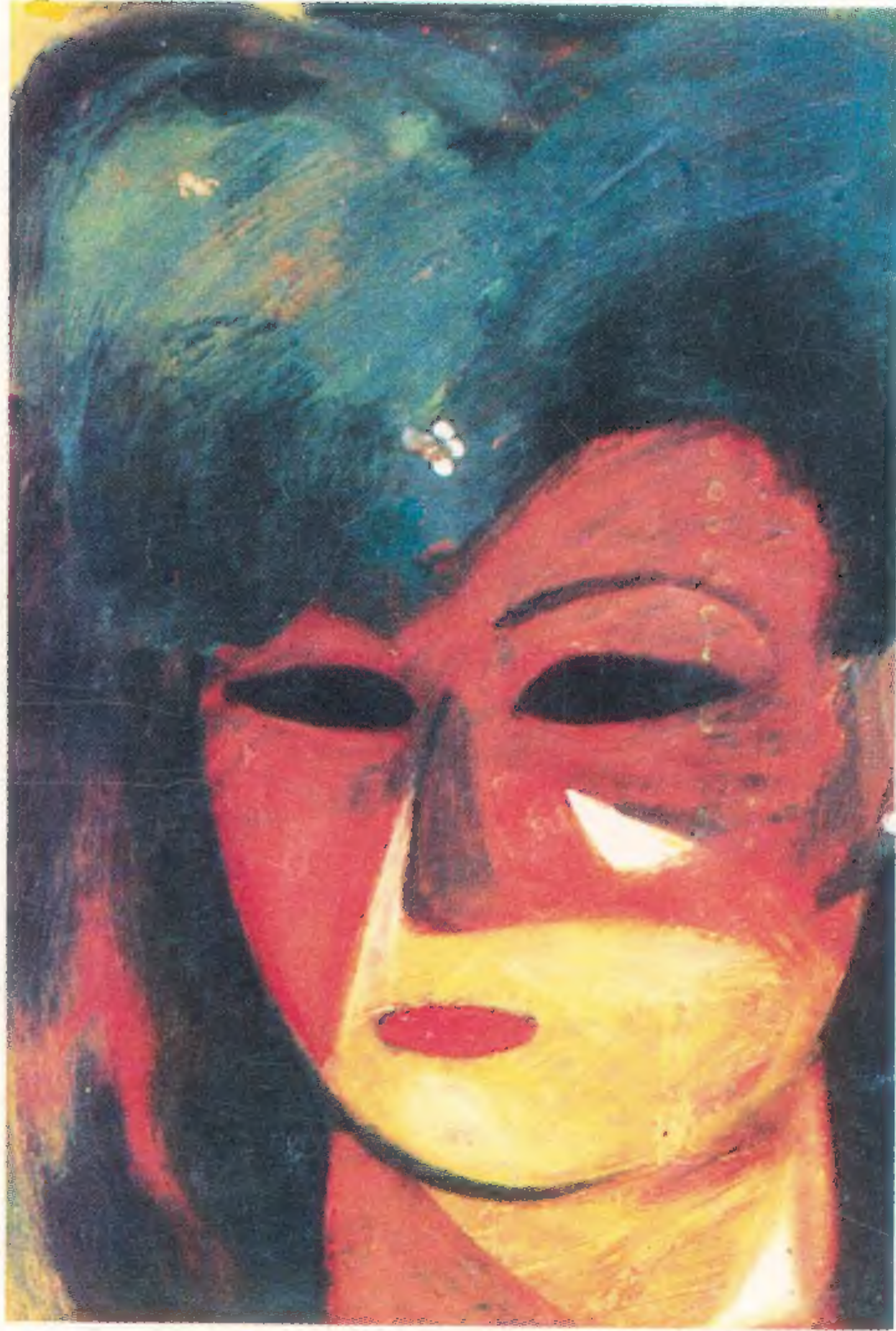


نهاية العالم هذا المساء

كاترين دو ريشو

ترجمة: شيرين محمود الخطيب



49



الهيئة العامة لقصور الثقافة



أفاق الترجمة

أفاق الترجمة
نوفمبر ١٩٩٨



الهيئة العامة
لقصور الثقافة

نهاية العالم هذا المساء

الفنان عصمت داوستانشى

التصميم الأساس للخلاف

عمر جهان



رئيس مجلس الإدارة

د. مصطفى الرزاز

المشرف العام

على أبو شادي

رئيس التحرير

د. منى أبو سنة

مدير التحرير

محمد عيد ابراهيم

استشاريو التحرير

د. مراد وهبة

د. إبراهيم البحراوي

د. أحمد مستجير

المراسلات باسم مدير التحرير على

العنوان التالي : ١٦ ش أمين سامي - القصر

العيني - القاهرة ، رقم بريد ١١٥٦١

العنوان الأصلي للرواية

C'est la fin du monde ce soir
Robert le chevalier, 1988

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

تقديم

ولدت الكاتبة «كاترين دوريشو» عام ١٩٥٠م في أسرة متوسطة الحال في إحدى ضواحي فرنسا، ونشأت وسط مجتمع من الأشخاص.

كانت «كاترين» طفلة مميزة، تشتعل ذكاءً، فكانت ترقب كل ما يدور من حولها وتخترنه في ذاكرتها الصغيرة. وكان والداها يهتمان بها ويلاحظان عليها مدى شغفها واهتمامها بالقراءة، ليس فقط في الأدب الفرنسي ولكن في مختلف الآداب.

درست «كاترين» علم النفس عندما كبرت واستطاعت أن تتوغل في النفس البشرية وفي عذاباتنا وكتبت العديد من القصص وحصلت على جوائز متعددة رغم صغر سنها.

ولقد اهتمت بالمرأة ومشاكلها وأحاسيسها: عندما تفرح وتحزن وتغضب. وقد جسدت كل هذا في الرواية التي كتبتها عام ١٩٨٨، وهي «نهاية العالم هذا المساء».

وحازت على التقدير والإعجاب وحصلت على جائزة الكتاب في فرنسا تقديراً لها.

إنها قصة تدور كل أحداثها في يوم واحد فقط، هذا اليوم يختلط فيه النور بالظلام والشمس بالقمر، لتعبر من خلال الرواية عن اختلاط وتداخل المعانى والأحاسيس داخل امرأة محطمة صُدمت في حبها حتى صارت أشلاءً متناثرة، تحاول أن تجمع أشلاءها، مع عرض لتلك الأحاسيس والتناقضات والصراعات التي يمكن أن تتمثل وتتجسد داخل امرأة واحدة، وكأنها نهاية العالم بالنسبة لها، فتأرجحت داخلها مشاعر الحب والكراهة، رغبة في البقاء ورغبة في الموت.

المتروجمة

الفصل الأول

كانت تسير هائمة فوق الطرقات عصر يوم عندما لمحت
أندريه أمامها من بعيد.

تأهبت للانطلاق لكنها لاحظت وجود سيدة بجانبه تبتسم
أثناء حديثها معه... كان يجب أن يكون بمكتبه فى هذه الساعة!
لقد أشعرها ذلك بالإهانة فقد كانت لا تريد أن تراهما وهما
يسيران متشابكى الأيدي... وابتعدت بسرعة.

لقد أزمعت الرحيل قبل أن يحدثها أندريه عن تلك السيدة
ومدى حبه لها. لسوف تكون بعيداً مسبقاً حينما يحين الوقت
الذى يقرر أن يبوح فيه بكل شئ لها؛ لكنها... هذا المساء ليس
لديها مقصد ترنو إليه. ربما لا تدرى إلى أين الرحيل أو لأن
القلق كان قد استبد بها فلا تستطيع الشروع فى أى شئ.
وحينما هامت على وجهها فى الشوارع؛ كانت لا تفكر فى أندريه
ولا فى تلك السيدة التى كانت معه. وسلكت طرقاً متعددة ناسية
كل شئ.

المدينة شبه خالية هذا المساء على وجه الخصوص. كانت
تلمح بعض المارة وقليلًا من السيارات التى تظهر عند دخول
الليل حينئذ أدركت أنها ستشفى من كل شئ إذا أمضت الليلة
بكاملها فى الخارج.

سوف تتنقل بين أحياء متعددة فى الأيام التالية. سوف تعود
إلى البيت متأخرة بقدر استطاعتها؛ لكن أندريه لن يلاحظ
غيابها!

عندما تلتقى به ستواصل الحديث باستمرار حتى لا تتيح له فرصة القرار القاطع. كانت تشعر أن شيئاً ما سيحدث لكنها لن تأخذ خطوة إيجابية مثل أن يحدثها أندريه. إن المشهد الذى تخيلته فوق الطرقات أصبح حقيقة ملموسة.

لقد انتهت العلاقة بينها وبين أندريه منذ زمن.

كان من الأجدى أن تتذكر جيداً ما حدث قبل عصر ذلك اليوم الذى رأت فيه الابتسامات المشتركة على وجهيهما. وربما يكون التغير الذى طرأ عليهما قد حدث فى نفس اليوم الذى رآها فيه أندريه لأول مرة. إنها لا تستطيع أن تلمم أو تعيد ما أتلفه الزمن؛ فهى لا تستطيع أن تتفوه بكلمات تغير بها مجرى حياتها. وساءلت نفسها؛ هل سيكون الألم أشد عند رحيله؟ وهل كانت ضعيفة عندما ادعت بأنها لا تعرف شيئاً؟ كانت لا تخشى سوى اللحظة التى سوف يتحدث فيها معها! فى يوم من الأيام كانت مكان تلك المرأة... محبوبة مثلها، وبالتدريج أصابها القلق وأدى بها ذلك إلى الدخول فى ممر ضيق ذى إضاءة خافتة. كانت تريد التزام الصمت منذ وقت بعيد، والرحيل والاختفاء. لقد أدركت الوضع جيداً وعليه فلم يعد هناك سبب للاستمرار، ولا لسماع تبرير لوجودها هنا. كل ما عليها أن تستسلم للأمر الواقع. تعمدت الاختفاء فى أماكن بعيدة داخل المدينة التى كانت لا تعرفها حتى الآن. وكلما اجتازت مكاناً ما، أو وقفت عنده هدأت من روعها. ولقد فرضت كلمة (مجهول) نفسها عليها بقوة

إذا ما صادفها شارع جديد أو وصلت إلى مكان لم تره من قبل. فضاء كبير ألت إليه؛ حال بينها وبين أندريه مثل السد. لكنه كالدواء. ولو رآها وهي تهيم في الطرقات لما عرفها أبداً وربما وقع في حبها مثلما فعل في الماضي. كانت لديها الرغبة في تحطيم الأزقة، وأحياناً أخرى، في تدمير نفسها. وقبل ولوج الليل مباشرة، وعندما بدأت السكينة والهدوء يريمان على الشوارع؛ توجهت نحو المرفأ. وفي اللحظة التي شعرت فيها بالوهن يسرى في أوصالها لم يبق في ذهنها سوى العودة إلى البيت. وبعد مرور بضعة أيام على حديثها مع أندريه بصدد وضعها معه؛ تبدل كل شيء وأصبحت الأمور شبه واضحة. لقد لفت نظرها وجود ظاهرة معينة على الأشياء والأشخاص والمنازل، وعلى المدينة بأكملها. وأنها تستطيع كذلك الاستنشاق جيداً كما لو كان هناك تغيير قد أصاب الغلاف الجوي، وأصبح أكثر رقة من رقة الانعكاسات فوق الحرير أو الماء. هذه الظاهرة لم تكن سوى نظرات أندريه التي كانت تشعر بها في كل مكان، وعلى كل شيء. لم يتأثر هو بشيء من الذي كانت تراه فبدأ كل ما كان عالقاً على ذهنها في الذوبان.

بعد بضعة أيام سوف تفقد الإحساس بطعم الأشياء المحيطة بها، فهي لا تحاول تغييرها إلى الأفضل، ولم تعد تعرف مطلقاً ما الذي فقدته وما الذي سوف تجنيه عندما تتحول إلى شخصية أخرى، عندما تجد نفسها و تستعرض باستمرار نفس الصور في مخيلتها... لقد شاهدت شوارع وصفوفاً من المنازل وكانت

المدينة خالية بيضاء والصباح مبكراً جداً. الأبنية العديدة فى هذه المدينة تعلوها القباب. وعندما يحل المساء تعطى هذه القباب شكلاً جميلاً للمدينة؛ فهى بشكلها الدائرى تبدو وكأنها جبال مصفوفة ومضيئة. وأجمل من ذلك تلك الكنيسة المائلة أمام نافذتها مباشرة. وتخيلت المدينة مع وجود القباب التى لم تكن كذلك حقيقة، والأماكن التى ظلت كما هى منذ أن كانت طفلة صغيرة، والتى كانت تذهب إليها مع أندريه. لقد قاومت التغير ولكن الأماكن أصبحت مجهولة، وتهرب منها واحدة تلو أخرى.

كنا نرى تلك المرأة رابطة الجأش، ونظراتها متجهة إلى ما لا نهاية تجاه جذر شجرة، أو بقع من الصداً تعلو أجد الأبواب أو الحوائط... إنها دائماً فى حاجة إلى التنقل فى كل مكان بحثاً عن مكان ما، أو لإعادة انتعاشها... وتكمل سيرها بامتداد الشوارع التى كانت تتراعى أمامها بسهولة. لقد تركت، نفسها واقفة فوق المرفأ يلفحها ويحرقها الهواء المالح لساعات طويلة. كان عليها أن تبذل مجهوداً لكى تتحاشى الأماكن التى عرفها معاً، فهى بمثابة حياتها التى تفقدها الآن. خلال أيام سيتوحد أندريه مع الطرق والأماكن والمقاهى، ومع صيحات تاجر يقع محله على بعد شارعين من منزلها... سوف تجده فى كل شئ ولكن كل الأماكن ستتفر منه... وعليها أن تبحث عن مكان جديد لا يحمل آثاره. سيأتى اليوم الذى يعلن فيه عن رحيله، وسيحاول أن يجد المبرر لذلك. ستتظاهر بالإصغاء إليه. ستحاول أن تمنعه. إنه لن يخبرها بشئ، كما أنها لن تتألم. بأى شئ سوف

يرحل، وماذا سيبقى له منها، وهل سيشعر بفقدان شيء؟ كانت تريد أن تفكر فى كل شيء وتتصور نفسها مكانه؛ لكى تضع حداً لهذا الخبر الذى لا يصدقه عقل. إنها تنظر إليه وهو يولى ظهره للنور، وتفكر بأنه لن يكون هنا أبداً أمام النافذة مع إشراقة شمس جديدة. ولكنه اعتاد هذا المكان، وعلى هذا المنزل الذى لبثوا فيه مدة عامين... ومع ذلك سوف يرحل وهو يدرك أنه لن يرى وجهها فى هذا الوقت من ذلك اليوم. عندما يوصد الباب ويختفى؛ لن تتحرك من مكانها؛ ولكن ألماً شديداً سيجتاح صدرها... سوف يبدأ بنقطة احتراق ثم ينتشر تدريجياً حتى يخرج من جسدها مؤذنا بنذر الانفجار. إن حزنها انتظار مجنون، وخبر انفصالهما لم يكتمل بعد... ولكنه متوقع، وحى لم يمت؛ وعلى ذلك ترى فى مخيلتها أن قوامها لا يتعدى كثافة ريشة، وأنها شبه متواجدة... لكنه هو... سيدخل فى نور جديد... نور حقيقى هو نور الحب. من أجل ذلك رحل... رحل لكى لا يبقى وحيداً أبداً؛ فهو يملك العالم بأسره، ولن يحبها بعد؛ إنه مشغول الفكر باللقاءات الجديدة القادمة، ولن يعيش معها فى نفس المكان بعد الآن. من أين جاءت له الثقة بأنه يحب وأنه محبوب، عندما قرر الرحيل عنها؟ لقد أيقن ما الذى كان يفتقده معها ولكنه أوشك على تبديد كل شيء... فمن غير المعقول أن تصبح شيئاً مهماً فى حجرة ولكن هلعها سينتهى إذا خرجت؛ لذلك كان يجب عليها أن ترحل! إنه لن يستطيع تحديد مكانها فى تلك الأرض الشاسعة، ولن يعرف أبداً ماذا تفعل. كان يجب

عليها أن تهرب وتختفى ولن تعاني أبداً... هذا هو الحل الوحيد.
لن يستطيع الاستدلال عليها أثناء انشغاله بحبه للآخرى... فلن
تصل أخبارها إلى مسامعه أبداً. ولكن سيكون من الصعب عليه
أن ينساها. سيكون مضطراً للتفكير فيها. أن تكون في هذه
المدينة أو في مدينة أخرى، بشكل أو بآخر، سوف تكون على
وجه الأرض في هذا المساء. ركبت القطار الذى أقلها قرب الحى
العربى الذى يقع عند المحطة الأخيرة للخط. واصلت السير. لم
يكن مشهد الغروب يثير اهتمامها بهذا الدرجة؛ ولكنها تستطيع
أن تؤرخ هذا اليوم بأنه هو اليوم الذى رأت فيه الشمس وهى
تغرب... هناك اللون الأصفر، والأزرق الذى يحاكي لون البحر،
وسحابة مبهجة تعلو الطريق المتجه إلى اليمين، والأرصفة غير
الممهدة. توقفت وسط المدينة وما بها من رغبة فى مقابلة أحد.
كانت على يقين بأنها ستبدر منها تصرفات غير طبيعية. سارت
قليلاً دونما اتجاه معين وبدت الشوارع خالية من روادها فى
السابعة مساءً؛ لدرجة تصورت معها أنهم يعدون لحفل ريفى
كبير. مرت أمام فندق «إكسيلسيور»، ودار القضاء، وأخذت
تدور حول مجموعة من البنايات، رأت الحزن يُخيم عليها جميعاً.
ولكى تتحاشى الحركة فى منطقة تجارة السوق السوداء، سلكت
طريقاً أساسياً بين صفين من الأشجار. وهو طريق يحتوى على
سهل بيضاوى الشكل مزروع بنخل يفصل بين ممرين
مكشوفين... يؤدى الممر الأول إلى مبانٍ إدارية، أما الآخر فيؤدى
إلى محلات فاخرة، ويحتوى أيضاً على محلات الصاغة وبائعى

الجلود المدبوغة، وكذلك على دكاكين للحلوى، ومكتبة كما يوجد أكبر دارين للسينما بالمدينة: الـ «ركس» والـ «مارينيان»... كان اسم «ركس» منقوشا بالحروف الضخمة المنفصلة كما لو كانت توقيعا مميزا باللون الأحمر فوق حائط ذهبي اللون. لا تكاد الممرات تظهر للعين إلا من خلال مصابيح الدكاكين، والمصابيح المضاءة بغاز النيون. وعليه فقد كان من السهل أن يخترق النخيل لكن لم تكن إضاءته قوية بما يكفي لوصولها إلى الممرات.

صادفت العديد من الكلاب الهزيلة حينما كان لون السماء رمادياً غريباً. وجاءت الريح الساخنة لكي تدمغ غروب الشمس القلقة، وتضاعف من السكون. كانت هذه الظاهرة تفسر إحساسها بضيق الصدر في ليلتها هذه؛ وكأن شيئاً يُحَاك في الخفاء. إن حياتها تسير بطريقة ميكانيكية وسوف تؤدي بها إلى نهايتها. وفي أمسية من تلك الامسيات وقد أسدل الليل ستائر، وجدت نفسها في مكان مجهول، بعيدٍ عن بيتها. حينئذ ينبغي علينا أن نتساءل؛ كيف استطعنا أن نبقى على قيد الحياة؟ وحتى الأشياء التي استطعنا تحقيقها، والأحداث التي عايشناها وكانت تبدو وقتها أنها ذات أهمية؛ لم يكن لها ضرورة أو منفعة. كان هذا الشك مصاحباً للنور الذي لم تتعود عليه، وللليل الذي كان يفرض نفسه من أجل مأساة. كانت تشعر في كل مكان من الفضاء بحركة الهروب التي تولدت من سطح الأرض. من جهة أخرى كانت تمشي منكرة العينين، تختلف عن كل شيء؛ لأنها فقدت كل شيء، من أجل البقاء في الليل؛ يجب ألا يوجد شيء

نتمناه. وفى الطريق المؤدى إلى الممرات توقفت على شاطئ
البحر كعادتها فى الأيام الخوالى. لقد تلاطمت الأمواج
وتحطمت. فى تلك اللحظة شعرت بالراحة والنقاء... تصلبت
أقدامها ولم تعد بها رغبة فى التحرك.

الضوضاء تسحق الفضاء... توجهت برهة وكأنها لم تعيش
ذلك من قبل. وظهرت فى جسدها درجات من الألوان تقترب من
زرقة الأمواج، كما يتداخل فيها ألوان الشفق... ولون الدماء...
وأصبح جسدها كبرج متحرك بارتعاشة؛ ولكن الصخب ينخفض
من حوله وفى تلك اللحظة تطفو فى رأسها هذه المقولة: «كان
يملكها من قبل». لقد وجدت سعادة بالغة الجمال ومن ثم فهى
فى حاجة مستمرة لترديد هذه المقولة دون توقف. كانت تستشعر
من خلالها كأن آخر يهددها ويحميها. ملأتها ثقة بأنها كلما
استرجعتها فلن يحدث لها مكروه. كانت تشعر برغبة فى
الصعود والهبوط، أما كلمة (من قبل) فهى بمثابة نهر طويل، و
كذلك كلمة (كان يملكها)؛ صف طويل من الذكريات التى تسير
على حافة زورق. كانوا يتقدمون ببطء والشخص الأخير يستعد
للانصراف، والركب يستغرق وقتاً إلى أن يختفى فى الظلام.
كانت تأسف لذلك ولكنه ذاب فى اللانهاية. توجهت نحو الممرات
عندما اجتاحت رأسها أفكار أخرى... (يا الله؛ ما كل هذا
الانتظار!)... كانت جملة صحيحة بدون رتوش. لقد عاودت
التفكير فى أندريه مرة أخرى. إنها لا تستطيع أن تحيا بدونه،
كما أنها لا تعترف بالعمر الذى عاشته قبل أن تعرفه. استخدمت

الطريق الساحلى للحظات حتى تصل إلى الطريق الذى يخرق الأشجار عند اتصاله بالممرات، مرت أمام المستشفى التى مكثت فيها بضعة أيام عندما كانت فى السادسة من عمرها. إنها مستشفى (سانت تريز) التى كانت مشيدة وسط صخور حمراء وعلى نوافذها - التى تشبه نوافذ سفينة عتيقة - ملح البحر. لقد تذكرت تلك الايام وكيف ظلت طوال أربعة أيام وهى فاقدة للوعى!

أخبروها فيما بعد أنها كانت مجردة من ملابسها وهى فى الفراش، وذات مظهر مخيف. لقد تقيأت كل ما شربته من الماء ولكنها تتذكر صوتا كان يسخر منها، إنه بلا ريب صوت أحد الأطفال، الذى كان يقاسمها الغرفة. كانوا فى العاشرة من عمرهم فوق أسرة صغيرة، مصنوعة من الحديد، ولها قضبان مدهونة بطلاء أبيض، أو فاتح الزرقة. هفا إلى خاطرها أيضا تلك الغرفة الفسيحة، والنوافذ المرتفعة التى يتسلل منها الضوء. فالطقس حار جداً؛ ولكن تلاطم الأمواج، والخطر الكامن؛ أوحى لهم بمشاعر الراكبين فوق سفينة وسط اليم وقد أرخى الليل سدوله... كان كل ذلك يحدث على وجه الخصوص عندما كان عويل الرياح يوقظهم. وصلت إلى الطريق الطويل الذى يحده كل من الممرات والمحلات، وعندما وصلت إلى حافة المياه تخيلت نفسها تمشى على الممرات وظلها الوحيد يشعرها بالخجل! كيف تتغلب على الوحدة، وتتحرر نهائياً من هذا العار؟ لقد شاهدت ظلها على الرخام الأسود الملطخ. كان الممر المكشوف غارقاً فى الظلمة حتى أنها لا تستطيع أن تميز أى شئ حولها. سوف

تتخطى بخطواتها الحدث وتقصى عنها الحواجز التي لا
تستطيع مسايرتها.

لكن حياتها سوف تتغير. إنها واثقة من ذلك، ولكن كل شيء
انفض فجأة... ومن حين لآخر كان المارة يروحون ويجيئون؛
ولكنهم أصبحوا مجرد خيالات تتحرك في سكون... كانت معتمدة
مثل الأشياء التي تحيط بها! الانعكاسات الصفراء فوق الرخام
الأسود؛ عبارة عن خطوط من الأتربة تلمع بصعوبة. إنها في
الصحراء؛ فالتربة الباهتة هي رمال الصحراء، الأعمدة أيضا
مثلها مثل الرمال ولها القدرة على التمدد في اللانهاية. شعرت
برغبة في التقدم بلا توقف في فضاء منتظم. هذا الممر الطويل
المظلم كالبر في قفر يباب.

كانت سوداء جافة مثل حشرة... الوجوه التي مرت عليها
كان يعلوها الإعياء والألم، وفي اللحظة التي يقتربون فيها منها
كانوا يتفرقون واحداً تلو الآخر كما لو أنهم انطلقوا كتلة واحدة؛
ولكنها تتفرق بسببها. إنها وحيدة، وحيدة تماماً، ولن يكون هناك
عائق... ستفعل كل ما تريد... أبعدتهم عنها ربما بوحشية...
تناقص عدد النساء كثيراً؛ الوقت متأخر... لماذا ينظرون جميعهم
إليها عند مرورهم؟ ترددت للحظة، وبعدها استندت على الحائط.
عندما اقتربوا منها خففوا من سرعتهم. كان من الممكن أن
يبتسموا لها، وتمتد يدٌ لتستقر على كتفها؛ ولكنهم لم يدركوا
سهولة ذلك! سيختلف الأمر تماماً لو هموا بفعل ذلك؛ فغالبية

الشباب المنجذبين لذلك الخيال الملتصق بالحائط هم أنفسهم الذين يضايقون النساء فى الشوارع... أما فى تلك الحالة فقد ثقلت خطاهم وانحرف مزاجهم. مضى وقت طويل وهى مستندة على الحائط. أصبح كل شئ مختلطاً فى رأسها. وإذا خرجت من منطقة الظل لتعبر المفترق الكبير... الطريق المزدوج المزروع بالنخيل، وإذا مرت فوق المنفذ ذى اللون المشرب بحمرة خفيفة لتصل إلى الشاطئ، سوف تأخذ طريق السيارات... لذلك يجب أن تخرج من الظل. كانت تظن أن النهار يكمن خارج دائرة الظل... يعاودها شعور بأنها فى فضاء لا حدود له. ستصاحبها الوحدة دائماً نهاراً أو ليلاً! لكن هناك عالماً يموج بالضوضاء وهذا أفضل على أية حال. إذا ما حاولت أن تسبح مع التيار؛ فلن تسعفها الحركة. تعترىها رغبة ملحة بأن تظل الصخرة المتوارية كما أصبح حالها الآن. كانت مثل الحجر والليل يلائمها أكثر... وفى نفس الوقت تحولت إلى نوع من الحشرات الليلية... هيكل عظمى يقاوم بلا تنظيم... الحشرات عادة يحكمها منطق فى تصرفاتها... لقد تحولت إلى آلة من مادة أقل صلابة من المعدن. تستند دائماً على الحائط مع انحناءة للأمام. حاولت الخروج من حالتها؛ ولكنها كانت تشعر من أعماقها بالهلع المغلف مثلها؟ الآن... تدور بداخلها معتقدة أن مظهرها الخارجى سوف يتحملها، وإذا ما مالت قليلاً سيكون ذلك مبعثاً للتأكد من أنها لن تنشط أو تتمزق أو سينسكب ما بداخلها... إنها إناء مائل! بائسة، مسلوية من كل شئ؛ لكنها لا تخاف أبداً من أى

شئ. كل ما يقوله المارة يأتى إلى مسامعها ولكن دون أن تتأثر به؛ فلا أحد يجرؤ على إبداء الاهتمام بها، أو توجيه الحديث إليها. إنهم لا يعرفون ما كانت تفعله هناك، وماذا سيكون مصيرها... ولكنهم يعرفون جيداً أنها لا تشتكى من أى مرض عضوى. لا يجب عليها أن تركز النظر على أى شخص مهما يكن... من الممكن أن تتحول أفكارها إلى مادة فالشخص الذى سوف تركز نظرها عليه سيكون له وجود وسيصبح الاثنان متصلين بطريقة خطيرة ولا نهائية... يجب ألا يكون هناك اختلاط بينهما وبين كل المادة... ستحاول الهجوم وربما تفقد نفسها تماماً... كانت أفكار عديدة تطوف فى رأسها، وتقض مضجعها وتبعد عنها السكينة... إنها تستطيع الوصول إليهم إذا تحركت أو خطت خطوة صغيرة؛ إنها لا تجاوز أحداً كما أنها لا تمتلك أحداً. إن نظرة واحدة منها ستبعث الاطمئنان فى نفوسهم ولكنها كانت تريد أن تستشف نظراتهم وأجسادهم أيضاً. لو رحلت عبر الشارع الساحلى العريض فلن تستطيع إيجاد الممر المؤدى إلى البحر... كان بعيداً وصعباً وسيكون فى الغالب حاراً. التصقت تماماً بالحائط؛ وعليه فلن يستطيعوا الإمساك بها. كانوا يشعرون بالخوف، ويجب أن يصيبهم الفزع منها لفترة طويلة، وأن يتجمدوا عند رؤيتها وهذا كاف لتطهيرها. لقد أصبحت على فوهة الغموض والموت. مؤكد أنها تستطيع المضى إلى هناك... ولكنها لن تتحرك... يجب أن تتناساهم وتزور عنهم... فليتحملوا ذلك.. أشياء سوداء تتحرك فى كل اتجاه؛

إنها أجنحة العصفير التي كانت تهرب من عيونهم المنغلقة غالباً... الأجنحة تقاتل لتنسيهم الأصوات الخفية للأقدام، والظلال الهاربة التي تذوب عندما تميزها. كانت تتركهم ينزلقون ويختفون. إنها تستطيع أن تذهب إلى هناك لتلتقى بهم... إنهم لا يحبذون وجودها ولا مجرد بقائها على قيد الحياة. لم تشعر ببادرة تدل على أنهم يفضلون أن تتركهم بالقاذورات العالقة بجسدها. ولكن ما الذي يستطيعون منعه؟! لم يبق سوى تبديد النظر. منذ لحظة كانت تجلس في الظل، يميزونها بصعوبة من الأرض السوداء. ما الذي يجذبها للضوء ولنور الصباح؟ من الذي يستطيع أن يبعث فيها الطمأنينة، ويقر بأنها تستطيع أن تعود مرة أخرى للحياة وأن المستقبل سيكون ملكاً لها أيضاً؟ إنها تريد إثباتاً من طائر، أو امرأة معتمدة مثلها تستطيع أن تؤكد لها إمكانية ذلك. كانت لا تمد بصرها أبعد من الممرات؛ ولكنها تتذكر فقط ما كان يحدث من قبل على حدود تلك الصفوف فيما وراءها. الأماكن والشوارع المألوفة لها والتي تعرفها تماماً؛ لا تستطيع أن تنكر وجودها ولكنه وجود خاص دون صدام ودون تمييز... إنه خلود أبدي. في تلك اللحظة لم تتعرف على نفسها إلا من الداخل... كانت تشعر بدوامات ودوران... وبأمواج تتلاطم على جسدها... أعطائها طعم الملح شعوراً بالغثيان. لو كانت تستطيع أن تعبر الغثيان إلى الموت سوف يكون ذلك قريباً! تمنى أن تعبر من واحد إلى آخر؛ فلم تعد سوى حشرة منهكة... انتظرنا موتها ولكنها لا تحيا... لا

يُعدّ هذا خبراً متوقعاً؛ فالنظرات المتجولة فى كل مكان احتوتها؛ ولكنهم ظلوا صامتين... كان جسدها مثل أجساد الموتى التى تجرها الخيول ذات العجلات... جسدها ملفوف بغطاء أبيض ولا أحد يستطيع تمييزه. لم يقل أحد حتى الآن إنها متحررة، وإنها تعذبت كثيراً من أجل هذا الواجب؛ ولكنهم صامتون دائماً... نظراتهم الناقمة تتزايد باضطراد على العالم كله. فى تلك اللحظة تذكرت حوض الماء العكر، والعديد من السيدات اللاتى يتجمعن حوله يسلطن النظر إليه. تمنى أن تكون على مرتفع صحراوى كبير بلا ماء ولا أشجار... ولكن كيف تكون الحياة؟ لقد أسقط فى يديها، ولا يوجد حل... المارة لا يجدون سوى شكل جامد فى الظل. كانت تحاول أن تتحرك كثيراً ولكن بلا هدف.

كانت تسلك طريقاً واحداً أمامها، تخطو خطوة وتلحقها بالأخرى وهى متيقظة لكل حركة تصدر منها. لم يفارقها شعورها بأنها فى عتمة بل صاحبه حالة من الترنح؛ فهى تدون كل ما يدور من حولها دون اكتراث... خلال بضع ساعات سيولد يوم جديد وستظل كما هى بلا حراك، مطأطأة الرأس. كانت دائماً تخشى الموت. لا تقاومه ولا ترهبه. إنها تخطط من مكانها لهذا الموت وهى هادئة.

وفى لحظة طراً على ذهنها عبارة: «يا الله أى انتظار!»، فهى لا تجد عبارة تتناسب وحالتها أكثر من تلك التى سلحت بها جسدها الذى أصبح منيعاً. إنها تتمنى ألا ينتهى المساء أبداً.

وأين ستذهب عندما يبرزغ النهار؟!

استمرار صدى تلك العبارة فى رأسها؛ شديد الصلة بوجود المساء. هلى سينتهى الأمر بموتها؟ ليس لديها شئ ثمين تحتفظ به؛ فجسدها كان مطروحاً على الأرض، ممزقاً، ذا لون رمادى وفقد الشعور بالحياة منذ وقت بعيد...

ومع ذلك فهى تحاول أن تهدئ من روعها برؤيته هكذا وستستمر على هذا الوضع حتى طلوع النهار، وستبحث عن مكان آخر منعزل ولكن كم من الوقت يتبقى لها حتى يطلع الفجر؟ لأنها تتخيل تلك اللحظة التى ستترك فيها هذا الممر. ستبسط قدميها مثل القطة، فيوحى لنا بأن هذا الهيكل لا يتعلق بشكل إنسانى... ولكنه مجرد طيف يعبر الطريق. وميض ليس أكثر وسوف تتلاشى سريعاً. لم يتبق سوى أربع ساعات على الفجر. أربع ساعات للحياة وللتأمل فى نفس المكان على الأرض... لا يزال الأمر الذى ينبغى أن تقوم به بعيداً.

كانت فى نسيج الليل سعيدة بالأ تكون سوى هذا النسيج. لقد فقدت كينونتها كنسيج جلدى... أذرع... أقدام وشعر. لقد اكتسبت صفة الليل. ولو حاولنا أن نتلمسها أو ندقق النظر فيها للاحظنا منذ الوهلة الأولى أنها تنتمى بشدة إلى الظلام. ستستريح من عبء وجودها، ولا يوجد ما يقال، وليس هناك مسئولية ترتبط بها... لقد اختفى كل شئ وامتنعه الظلام. حاولت أن تقاوم المساء دون أن تشعر متى انتهى بها الأمر إلى

أن أصبحت كهيئة القلم، وأضفى الليل عليها نوعاً من الثقل والأحمال مما أصابها بضيق فى صدرها. لكن هذا المساء سيكون رقيقاً مثل غطاء على رأس سيدة، غطاء بلون البحر الأزرق ولن ترنو إلى ذلك إلا عندما تمتلك حريتها. ويتطلب هذا استمرار وجود الليل لكى تحقق ما تتمناه، وهو أن تظل فى الظلام... وإذا تصادف سقوط ضوء فوقها لسلطت عليه مادة أكثر تعقيداً من الليل نفسه. إنها صامدة، وقد فقدت الشعور بالألم نهائياً. لقد غُلف جسدها بغشاء رقيق من غبار الأرض المشبث بها والذي تشبّع بنفس لون عينيها المفتقد للبريق... لم تعد النظرات من حولها قادرة على اختراق كيانها؛ لأنها لن تتعرف عليها أبداً، وبذلك ستركونها ساكنة لا يتوقعون منها أى شئ. لو أن الليل يستطيع أن يلد ليلاً؛ لاستطاعت أن تمتلك القدرة لوأده بقدر صمودها!

يجب على تلك المفردات... التنفس والذكريات والحياة، أن تصبح خليطاً مكتملاً حتى النهاية؛ يفرز نسياناً تاماً، يحتويهم الواحد فى الآخر لكى يتحدوا فى مادة واحدة، سوداء مثلاً لون فحم الانتراسيت الرمادى، أسود كالخطوط الغليظة التى تحيط بهيكل امرأة على لوحة زيتية من الشمال. ولكن يظهر لون آخر على اللوحة وهو الأزرق، فاللون الأسود تحول إلى زرقة مائلة للسواد مما أعطاها الإحساس بتكاثف هذا اللون. إنها لم تعد سوى مادة متحدة تماماً دون انفصام... لن يعود هناك نظرات أو استنكار.

الفصل الثانى

وبعد مرور ساعتين من الزمن، لم يتبق منها إلا خيال ينبعث
منه القلق، سوف تصاب بألم عندما توجه إليها الحديث... من
الممكن أن نقتلها، نطرحها أرضاً أو نطردها!

كان بعض المارة أثناء مرورهم بجانبها يتهامسون وهم
يوجهون النظر إليها ولكنهم لا يتوقفون.

هناك شيء من الرفض في شبح تلك المرأة. في وقت متأخر
جداً من الليل؛ شعرت بأن أقداماً تتسلل بهدوء إلى جانبها. كان
رجل على الأرجح ويبدو عليه الرغبة في إيذائها والانصراف
سراً. أهى محاولة لاغتصابها؟!

لو رأى نظراتها لفعلها. من الممكن أن يتمادى فيما كان
يصبو إليه. ولكنه أثر الرحيل دون أن يصدر منه صوت أو
إشارة.

كل ما كان يدور حولها لا يزال قائماً على حاله. وحضورها
ملحوظ في هذا الفضاء، ولكنها ليست موجودة بداخله.

انتابها شعور باستعراض كل شيء أمامها وكأنها تعرفه
معرفة تامة مع أنها في تلك الساعات كانت تتجرع الرعب.

لم يكن هذا الرعب مكوناً من مادة معينة؛ ولكنها تمتلئ به
ويطغى عليها. هل يدل على أنها مازالت تتحرك وتستمر وأن
تسأل نفسها من تكون؟. إنها من النسيج الذي يحيط بها.
شعرت بأنها على حافة الموت ولم يعد بداخلها أية تمرقات. إنها

أمام الموت مباشرة ويسودها اعتقاد بأنها داخل حالة الموت؛ بمعنى أنه لا شيء داخلها يستطيع أن يتصدى له. وكلما تخيلت أنها تجتاز بضع مئات من الأمطار التي تفصلها عن البحر، لكي تصل إلى المنطقة الصحراوية؛ يملكها شعور بأنها تخطو الخطوات الأخيرة للموت. ولو قامت بأى إيماءة لتدخل الناس واصطحبوها إلى المستشفى. ولكنهم لم يجرعوا على الاقتراب منها لأنها ظلت بلا حراك... لقد تركوها فى الظل. وعندما يُخيم الهدوء تحتها ولا يأتى لمسامعها أى ضوضاء، كانت تضع رأسها فوق قدميها المطويتين تحتها. بدأت تعتقد بعد ذلك بأن شعورها بالانزلاق ينبعث من بدنها. كانت لديها الرغبة فى تلمس كل ما يحيط بها؛ لكي تتحقق ما إذا كان هناك أشخاص بالقرب منها؛ ولكنها كانت مشلولة! كان رعبها المغلف هادئاً ومتجانساً؛ فلقد هيمن الرعب عليها أكثر من الموت حيث كانت تشعر بأصوات وحركات فى الظلام. هكذا كان ليها: كل جزء من الفضاء الذى يملكها فقد صلابته ومادته وأصبح قريباً وجميعاً جداً. فإن العالم لم يكن يهتم بها بهذه الدرجة لو لم تسع لذلك. وعند مرور سيارة، لا تنتمالك نفسك من الضحك! ربما تحاول فى هذه اللحظة العدول عن فكرتها دون أن تدري. بينما تزداد رهبتها كلما توغل الليل. لقد وجدت الضوضاء والوجود الخفى للأشياء والمارة المتأخرين، وأصبح الفضاء موحشاً. ينتابها شعور بالخوف من أن تقوم بتعذيبها آلياً.

شعرت بأننا سننتزع ذراعيها ونطرحها أرضاً إلى أن يتم

سلخها وسوف نتعرف عليها بأى جزء متيق من جسدها. سنقوم بالقبض عليها وننكس رأسها مع جذبها من شعرها، والإلقاء بها فى الركن. تنبّهت لنفسها وأصبح رعبها واقعياً... سقطت بعد ذلك فى ظلام تام؛ دام استمراره لوقت غير محدد. وحينئذ تجلى لها شعور غامض بأنها شئ مضطر لعدم الحركة.

ولكى لا تفقد الارتباط بالأرض. كان عليها الاحتفاظ بهذا الإحساس إلى الأبد بل وتحاول مضاعفته. وبالتدريج سينتابها حالات متعددة ورغبة ملحة بعدم الاحتفاظ بأحاسيسها وأنفاسها. وعندما تشعر بالتغير فى حالتها وتتناسى وجودها فوق الأرض الباردة، يطرأ تحسن طفيف فى وضعها... سوف يتربص بها القتلة، ويعاودون الظهور ثانية وبقوة. إنهم هنا لتمزيق جسدها ولقد استطاعت أن تعثر عليهم وتالفهم. ولكنها لم تستطع تحديد متى كان أول لقاء... إنهم حاضرون بالفعل! لو حاولت النهوض وشاهدوها بوضوح لقتلوا. لقد تضاعف الحشد الذى كان يراقبها فى ذلك الوقت. وبعد لحظة فقدت الثقة ولم يتبق سوى قليل من الأشخاص المنتظرين خلف الممرات... عديدٌ منهم يحتفظ بألة بين يديه، ويتلمسها بطريقة ميكانيكية. إنها على دراية بذلك وليس لديها الرغبة بالالتفات نحوهم. لم تتطلع للتعرف على قسمات وجوههم لأنها متشابهة. فهى على يقين بأنهم هنا لتنفيذ الحكم ولكن لماذا يتصرفون ببطء شديد؟ إنهم على ثقة بأنفسهم ولا يوجهون النظر إليها، وهى لا تخشى إلا الآلات التى بين أيديهم. حين حاولت النهوض مراراً، لم يبدُ

عليها إلا الرعب، وبعدها استبدت بها الحيرة.

لقد رقدت على الأرض، وجهها وجوفها فى التراب. فى تلك اللحظة أخذت شكلاً فوق الممر المظلم وكأنها مرتفع غامض لا تسهل ملاحظته فشعورها بالخوف كان رد فعل طبيعى لمراقبة الذين يتبعونها. لقد كانت ساكنة فى عداد الموتى. فهى تشعر باقتربهم من خلال احتكاك وأصوات أحذيتهم. بعد أن ظلت لوقت طويل ملتصقة بالأرض. شعرت فجأة بأن انفجاراً سوف يدوى فى المكان... حاولت إعطاء مهلة لنفسها لتهدئ من روعها ولكن الخوف الذى انتابها بشدة لم يكن بنفس درجة الرعب الذى تشعر به فى كل مكان. دُفعت بقوة إلى الأرض واضطرت مرة ثانية للنهوض. انتابها شعور بالسعادة وهى تخضع لتلك القوى الواهية كأنها خط واضح وخفى فى نفس الوقت. لقد غمرها هذا التيار الذى يصل الحالتين ويأخذ سمت السواد. استعارت هذا الشكل فى لحظة وتحملت جميع المواقف التى تستعرضها الآن فى رأسها والتمعن فى هؤلاء الأشخاص الذين يودون الانقضاخ عليها مثل الفريسة.

فهى فى انتظار تلك الخطوات الماكرة الخفية، مع التدقيق فى أقدامهم وهى تختفى أثناء ركضهم أو عند الاقتراب منها.

لقد خالت أنها تسمع جلبة حشد ضخم جاء من بعيد لتدمير كل شئ. تبخرت جميع الكائنات دون تحقيق ما كانت تخشاه. أدركت أخيراً بأن الصور والتحركات نفسها تتوالى بانتظام.

كُلّما تَهَمُّ بالنهوض، يَتمَلِكها الخوف الحقيقى للحظات قصيرة؛
وتجد نفسها محاطة بالسكاكين وبالأذرع التى تحاول الإمساك
بها لكى تتمكن منها أكثر... وبوجوه مشوشة مخيفة.

فهى تعتقد أنها تدافع بقوة ولكنها تجد نفسها بعد ذلك
جامدة فوق الأرض وأقدامها متصلبة ومكشوفة فوق ممر
غامض. إنها متواجدة فى أماكن متعددة فى نفس الوقت ولكن
تحت سيف الموت.

تتسمع أصواتاً تصرخ: «سوف نقتلك يا بذيئة!»... أصوات
رجال ثم أصوات نساء. أشكال متعددة. وظلال تنظر إليها لا
تفارقها أبداً. إنها موجودة من خلالهم... هم الذين يعرفونها
جيداً. يجب أن تكون ماهرة، وإلا سيدركون أنها استطاعت
الاستدلال عليهم. فهى تتظاهر بأنها تجهل ظلالهم وهى على ثقة
فى نفس الوقت بأنهم لن يغيّبوا عن نظرها. لقد تملكتهما
الأشياء... ولكن كيف كان ذلك؟ لقد اقترفت شيئاً خطيراً لكى
نقوم بإيذائها إلى هذا الحد وكأنها مسئولة عن مأساة كبيرة!
كرحيل العديد من الأشخاص بالموت... والفيضانات العديدة التى
شهدتها جنوب البلاد وأظهرتها الصور فى التليفزيون... وتخيلها
للعديد من حوادث السيارات القاتلة والانفجارات؛ لذلك علينا
تدميرها مثل القنبلة المهلكة. إن عيون الرجال المحيطة بها تتلأأ
ولا تتحول عنها ولو للحظة، ومع ذلك فإنها لا تستطيع رؤيتهم
أبداً وجهاً لوجه، وتفسيرها الوحيد أنها تعرف قليلاً من الأشياء.

وفى لحظة ما تولدت هذه العبارة بوضوح: «سوف نفعل ما نريده!»

وبوضوح أكثر من ذى قبل صدر حفيف وحركات شبه مميزة. هل يلتفون حولها الآن من أجل هدف نبيل، وهل هى فى حصار؟ بدأت لتوها فى استعادة سكينتها عندما وصل لمسامعها صوت مجهد يقول:

«ينبغى أن تنتهى، وتختفى هى فلا ولم يعد هناك وقت!».

لقد اختفى الآخرون. ويجب الأخذ فى الاعتبار بأنها لن تسمح باستثارة مشاعرهما. ومن الواضح أنها أكثر تماسكاً. قررت أن تظل مكانها، وتنتظر الكلمة التى ستودى بحياتها. يجب أن تحتويها تلك اللحظة الفريدة. فهى الوسيلة الوحيدة للانتصار والهيمنة عليهم. ومع تناسى الآخرين، تحاول أن تخفف عن نفسها اللحظة التى سوف تلقى فيها حتفها بطعنة خنجر تستقر فى جوفها. لقد انطوت على نفسها: وإذا أيقنوا معرفتها بمقصدهم وشعروا بعدم خوفها فلن يمسوها بشراً. لقد جلست كثيراً على الأرض فى الممر الخالى المظلم منذ ساعات طويلة وعبارة: «يا الله... أى انتظار؟!» التى ظلت فى رأسها طوال الليل، كانت تختفى ببطء.

وفى خلال ساعة على الأقل سوف تميز الأصوات... صوت وصفير التهديدات والاستهزاء بالذين يواصلون مراقبتها.

فإن أسلوبهم فى الحديث والضوضاء التى يحدثونها يدلان على معرفتهم لها معرفة تامة. ومع ذلك فهم يغلفونها بدفء غريب يكاد يكون عطفاً فى بعض الأحيان. تستنتج من ذلك أن البعض يضمّر لها الضغينة والبعض الآخر يحاول الدفاع عنها. إنهم يهونون عليها ببعض العبارات العذبة المهدبة، ولكن من الجائز أن يكونوا هم نفس الأشخاص الذين سيظهرون عداوتهم وقسوتهم. وبعد ذلك يبدون قناعتهم وملاطفتهم لكى ينهكوا قواها ويصيبوها بالجنون. ها هى تحاول استراق السمع وسرعان ما تكتشف أنها ليست سوى همهمة صادرة من اختلاط عديد من الأصوات التى تحاول أن تتفهم حديثهم مع محاولات الإقناع بارتكابها خطأ جسيماً لا يمكن التسامح فيه.

كانت تشعر كثيراً باقتراب الخطر، مع أنها خارج نطاق الجدل، لكن قدرها يقف بالمرصاد. بعد ذلك أوجت لها الأصوات بأنهم يترافعون كما لو كانوا فى قضية حقيقية. لم تعد تشعر بنفس الخوف مثل ذى قبل. وهذه الظواهر تسحرها وتشعرها بالجمود وكأنها داخل شبكة لا تحاول الهروب منها. كل ما يأتى إلى مسامعها ظل بعيداً عنها... يمر فى سرعة تصيبها بدوار. لقد تفهمت العديد من الكلمات: قتل، تشويه... وفى كل مرة تعتقد بأنها الكلمة الفاصلة. ولكن تتبعها كلمات أخرى. وعندما كانت تعيش حياتها الطبيعية، لم تتوقع أبداً فى فضاء مماثل لهذا المكان... اللانهائى والرهيب، وأصبحت كالعاصفة التى تأتى وتروح وتمر بداخلها الأصوات والتداخلات وبرد الأرض.

الفصل الثالث

لم تعد تميز نفسها من الظلام إلا عن طريق نبض ضعيف، واستطاعت أن تتوازن بمعجزة، كما أصبح انتماؤها شبه كامل مع أى شئ عدا جسدها. لم يبق سوى دورة بالداخل لا تزال موجودة حتى الآن تتصل بالفضاء ولكن التمييز بينهم كان طفيفاً. كانت تتقلص وتتمثل فى درجات مختلفة ربما يكون سواداً أقل تعتيماً أو اهتزازاً خفيفاً فى قلب الظلام الدامس. وكل ما تبقى منها بالداخل - والذي كان ينتمى أيضاً للظلام - كان فى محاولة للاتصال بالظلام الحقيقى الموجود فى الخارج. وبثبات، تحاول أن تكون واضحة بقدر الإمكان وإلى وقت قريب لم تكن سوى هواء متقل أو سحابة مداعبة زرقاء. لا شئ يكون منفصلاً تماماً. وكلما يبدأ ارتباطها بالليل فى الانحسار، تحاول بدورها التضيق عليه وبتصرفات بطيئة أصبح الليل كالفضاء المنغلق الذى كان يحميها برغم أنه يجهل وجودها. كانت حالتها وقتية. وجودها بهذا الممر كان قسراً ولكنها ترغب فى استمراره قدر استطاعتها. لن يجبرها أحد على الخروج من هذه الحالة ولا يوجد من يستطيع أن يجد مكانها أو يعرف وضعها. فى تلك الفترة من الليل وفى تلك العزلة الجوهرية؛ لم يتبق لها سوى تفكيرها بمكونات جسدها... لم تفقد الإحساس كلية ولكنها لا تعرف من تكون؛ فهى خليط، لكنه يختلف عن الليل. كانت نشيطة بطبيعتها، بشكل يميل إلى الثبات وبدا أن الفكر والحركة - فى لحظة ما - وجدا نقطة التحام؛ لكنهما استمرتا فى تمييزهما عن الليل. إن الألم لا يستطيع أن يصل أبداً لهذا الجسد الذى كاد

أن يتجمد. فلا توجد لديها الرغبة فى تحريكه أو حتى الاهتمام به. سوف تظل ساعة على الأقل متأرجحة بين الحالتين والتي ستُفقد الوعى بداخلها ثم تعود لا إرادياً لتحس بوجود جسد ممدد فى الظلام. أرادت وتمنت أن تفقد جسدها فى الماء، وسوف تتحول مكوناته وتختلط به. سوف يعتدل هذا الجسد وعلى الليل أن يتخلى عن نسيجه الذى سيتغلغل فى جسدها ويملاؤه. اكتملت ظلمة الليل وعم السكون الذى كانت تتعايش معه. يمكن أن نشعر بوجودها بطريقة أو بأخرى، فهى قادرة على تمييز الألوان والروائح، وتصيبنا بالخوف وعليه فقد كنا نرغب فى التخلص منها.

لم تعد فعالة ولا تقوم إلا باستقصاء المعانى. كان هناك عديد من المتناقضات والمتوافقات. الأصوات تندمج فى هدوء. أصبح الوضوح أكثر هدوءاً، وتناست سريعاً أنه منذ بضع ساعات لم يكن هناك سوى الصراخ والتهديدات، وأنها مراقبة بطريقة جنونية. كان سطح جسدها ساكناً وهامداً والليل يميل فوقها راجياً لها الخير... دار فى تفكيرها فجأة أنه - أى الليل - مثله مثل الرجل الذى كان من قبل فى حياتها ولكنها تمردت: لا، لم يكن هناك رجل تستطيع أن تتحدث حقيقة عنه. لم تكن هذه ذكرياتها، ولكن من الذى فكر إذاً، ومن أين جاء ذلك؟

ظلت للحظات طويلة مع هذا الوضوح الحاد وغير المحتمل. بعدها، شعرت بنشوة تنبعث من جسدها الملامس لليل؛ تنبع من

المركز إلى سطح الجلد والذي ينشره مع بريق ينزلق ويتسرب في خطوط مختلفة.

إنها تثق الآن بوجودها خارج كل الحدود، بلا إدراك لهذا الوجود.

ويدها تتابع محيط جسدها وكأنها السؤال سابقاً لكل حركة. وعندما تحرك يدها ينتابها شعور بأنها تتابع حواراً حياً. ولا تستطيع كشف مكنونه بعدما أصبح ماضياً... أبدأ لن تتراجع إلى الوراء... هذا الليل المغرق في الظلمة... تذكرت فيه ظلمتها. فاللون الأزرق هو المستقر في ذاكرتها. لا شيء غير الزرقة: ولا تحتاج للنظر إليه لكي تراه. كانت تريد قضاء اليوم التالي دون أدنى تغير في حالتها ودون أن يراها أحد.

الفصل الرابع

لو أن عيناً لمحتها أو استقرت عليها، أو سمعت اسمها، لتحولت ثانية إلى تلك الفتاة البائسة مثلاً كانت من قبل. ولكن فى تلك اللحظة لا تعرف شيئاً، ولقد شل تفكيرها. بالها مشغول بشئ واحد: هو الوصول لليل المقبل مثل العبور السريع للجسر. إنها رغبة أساسية مثل رغبة البقاء فى الحياة. كانت تبدو فى نهاية الليل، منهكة القوى لدرجة أنها لا تظهر استعداداً لتغير مسارها ولن يستطيع الليل شيئاً. وعندما وصل إليها بصيص من الضوء يسمح لها بتمييز الممرات، وفى لحظة أن رأت ذراعيها وثوبها الفاتح، تمنّت أن تضيق فى أى مكان، وأن تجد مأوى أشد غلظة من هيئتها التى تسحقها، تغرقها وتخفيها. كانت تتجه إلى حتفها من خلال تلك الرغبة! لكنها لا تخشى شيئاً. وعلى حين غرة؛ رأت البحر كما لو كانت عند قدميه! رأت الصخور السوداء الحادة، والطحالب المتصقة بالرمل، والقواقع المتجزئة والأحجار شبه ضامرة. أبدأً لم تطف بقدميها المستقبل الذى يصحبها إلى البحر. إنه طريق ذو عرض شاسع يتفرع منه طرق متعددة حديثة الإنشاء. ويظهر على الجانبين، النخيل، وكثير من براعم الزهور التى تشق طريقها إلى النمو... استمرت مصابيح النيون فى الإنارة إلى الصباح الباكر و أعطتها شعوراً بالعزلة والغربة. أبدأً لن تصل إلى النهاية... فهى تستعرض المسافة التى سوف تقطعها دون أن تستطيع اتخاذ قرار! عجزت أن ترى نفسها فى وضع آخر، وأن تتخيل نفسها مثلاً فوق الصخور فى وضوح النهار. مشاهد جامدة طغت على عقلها

وتركت علامة ظلت ترافقها لبعض الوقت مع الآثار الأخرى التي سوف تختفى فيما بعد. والظلمة تتلاشى تدريجياً من حولها، وتناقضات طفيفة تتجلى أمامها. وفي اللحظة التي تجد فيها الضوضاء والألوان المنبعثة حولها، تأتي إليها من جديد كما لو كانت من ابتكارها، فهي لا تستطيع استرجاع ذاكرتها من جديد. لقد نهضت وتقدمت بخطى سريعة دون تردد. لا شيء يستطيع مقاومتها. وفي نفس الوقت تكس العالم وتسطح مثل النسيج. ومن الحكمة والطريقين المظللين؛ وبنائات البنك العمومي، كانت تبدو كلها كأنها رسوم باهتة. تقدمت نحو الشارع الذي يتميز بالخصوصية مثل غديد من الأماكن التي تقع على حافة البحر، وكأنه اخترق الفضاء. هناك إذاً زقاق على مرتفع عند نهاية الأرصفة السوداء، والمنازل تتضح من على بُعد فوق الأفق كلما اقتربنا من البحر. وكانت المنازل مرصوفة بدقة ولا يظهر بينها سوى السماء! لقد كان البحر بعيداً إلى أسفل وحتى نتيقن بوجودها هناك كان علينا تتبع الشارع حتى نهايته والنظر تحته. أما ما استرعى انتباهها فهو الفج الموجود بعد البنايتين ولهذا السبب قررت المجئ هنا وعليه فلن نتذكر لقاءها بأحد. ماذا ستصبح تحت الشمس؟ لقد بدا عليها الشفافية والصلابة ولا، لن يتعرف أحد عليها لأنها سوف تكون أمام الشمس مباشرة. ستظهر أمامنا... كأنها خيال يلتصق بالأفق. سيختلط الجنون بالانبهار ويختلف الأمر عما كان عليه أثناء الليل. كانت قريبة جداً من الموت في تلك اللحظة، لكن وعلى

العكس من ذلك الآن فهي تحاول أن تبحث عن الحياة وعما تبقى حياً منها. شعرت باستحالة ذلك، كمحاولة منع شعلة من الانطفاء لأن ذلك سيكون مؤلماً. سوف تصارع ما هو أعتى وأقوى: النور والشمس. ستتصدى للنهار وستصاب نظرات الرجال والنساء مرة أخرى بالحيرة وسيصابون بالخوف عندما يحاولون تبرير ما يشاهدون مثلما حدث أثناء الليل تماماً! فإن ظلها سيترك فيهم أثراً عميقاً ولعلهم يودون أن تختفى السيدة بثوبها القذر سريعاً.

سيصابون بالضيق كما لو أنها كشفت جزءاً من أجسادهم. ستتصاب وجوههم بالحمرة وتُفتح أفواههم من الدهشة وهم يحاولون التماسك الحى حتى لا يرددوا أمامها: «يا الله! يجب أن نقوم بإبعادها وترحيلها!».

هذه السيدة مريضة، ويجب استدعاء الشرطة!»

لن يصرخوا بذلك ولكن ستدور بخاطرهم هذه الكلمات. إنها تراهم وهم يجرون الأطفال ويختفون خلف الصخور. سينتابهم الخوف. ولو أنها كانت رجلاً لما لفتت أنظارهم جميعاً فيما عدا الأطفال بالتأكيد، ولو اكتشف الأطفال ذلك لأصيبوا بالحزن بنفس الدرجة سواء كانت هى رجلاً أم امرأة. لا أحد فوق الشاطئ، والرمل يبدو ثقیلاً وموحلاً مع رطوبة الليل... وكلما تلفتت؛ تابعت العيون التى تشبه التجويفات الحادة ملياً وهى تتكور من بعيد مثل بعض القواقع. علماً بأن الموجات المتلاحقة

للمد والجزر هى التى أدت لتكون هذه التجويفات. إن نظراتها تتصاعد إلى أقصى مدى حتى نهاية كل خط حيث تلتقى فيه ثم تعاود الهبوط. لقد انتابها للحظة شعور بأنها فوق شئ صلب ضخّم ولامع. عليها أن تنتظرحتى يتبدل النور. هى ليست خائفة، ولكنها بين حالتين...

لقد نجحت فى توقع الأحداث. وقرب انتهاء الليل وبزوغ الشمس؛ قررت بأن شيئاً لن يحدث أبداً... هى تشعر بذلك.

لقد اعتادت دائماً أن الأنباء لا تأتى سريعاً ولا تملك إلا أن تكون وحيدة بعض الوقت وبلا حديث. تمنّت أن تصبح شفافة لضوء الشمس الحاد، وضعيفة مثل ورقة الشجرة المجففة، وببيضاء بما تحتويه من عروق. لقد كانت تخاف الخطر الآتى من الشمس لأنه يستطيع أن يحرقها ويقتلها. ستصاب بالألم ويتورم جلدها، وتجذبها الشمس بعنف شديد. فالليل لم يهددها مباشرة، واحتفظ بنفس الانطباع حتى تحدثت إليه. لكن الشمس تجهلها وستقوم بطحنها. لقد عبرت الطريق سريعاً عند سماعها لصوت عمال النظافة. لقد ركضت بطول الزقاق المغطى برؤوس الصنوبر التى كانت تسبب لها الانزلاق ولم يعد الليل كما كان بحق. ولكن أصبح كل شئ رمادياً. الشاطئ قذر، والهواء الذى كان متواجداً كل الأيام فى تلك المدينة، قد نثر الأوراق التى تتطاير مع الرياح! لقد رأت الزجاجات الفارغة، السدادات والعلب الملوثة؛ قبل أن تمر عربات النظافة، والرجال

الذين يحملون المكنس ذات الأسنان الحديدية. وإذا ظلت مكانها فماذا ستفعل عندما يأتون جميعاً؟ ويجب ألا تتوارد إليها الأفكار التي كانت تسيطر عليها من قبل؛ لأن هذا هو موضع الخطر. إنها خائفة من كل شيء... يجب عليها أن تكبح جماح نظراتها وجمودها ومن الممكن أن تترك لنظرها العنان ليسبح على الأشياء والألوان. هذا فقط ما تسمح به. فيما بعد نستطلع للأفق. ولكن حتى هذا سيمثل صعوبة كبيرة! وعندما يزداد الضوء، ستصاب بالجمود تماماً، رأسها إلى أسفل، وأقدامها ملتوية في نفس الاتجاه الذي كانت عليه في وقت ما من الليل في محاولة منها لاحتواء الألم الذي سينفجر. فإن إحساسها بذاتها وبجسدها المتواجد في هذا المكان، كان يتضاءل عند إحساسها بمركز الألم بالمقارنة بقوة الصدمة العنيفة التي سوف يتلقاها هذا الجسد... إنها تحاول أن تفكر وتتخيل شيئاً ينسبها وضعها. رأت نظرة مسيطرة عليها، إنها لشخص لا يعرف ماهيتها؛ لكنه اكتشف وجودها! لن تظل فوق الشاطئ... ستصل العائلات لتصلى وتستقر تحت المظلات، وسيمرح الأطفال من حولهم. يجب أن تبتعد عن الآخرين ولا تستمع إليهم وهم يتحدثون. كان المكان الذي تمكث فيه رطباً والطقس بارداً، ولكنها لا تحاول أن تحتذى منه. إنها شديدة الحساسية للريح، وينضم إليها الآن صخب البحر، والتلاطم الصامت للأمواج والذي يتبعه انزلاق الرمال أو حتّى الصخور المتحركة بفعل الرياح، كل ذلك يبدو لها عدوانياً!... وللحظة، كان مد البحر

منخفضاً، ولكنها أيقنت أن الشاطئ سيكون أصغر كثيراً عندما تتصاعد مياه البحر. لقد انتابتها الرغبة بالركض للوصول إلى الصخور السوداء التي كانت تفلق جانبا من الشاطئ. أما الطحالب فقد جعلتها ثقيلة ومكررة وهي التي تبدو صعبة المزال. كانت كحصن بارز من بعيد... أو كأنها رأس حوت مشوش وقوى. إنه المأوى الوحيد الذي لا يتيسر لأي شخص أن يضايقها فيه. ستكون هناك كما لو كانت فوق جزيرة نائية، ضائعة في النور. لقد أسرع في الوصول إلى نتوء جبل دون أن ترى شيئاً. والفجوات الممتلئة بماء البحر كانت تحرقها وتؤكد لها وجود بروز صخري. كانت الشمس لا تمثل سوى خيط أحمر أرجواني في الأفق. وكان لون أصفر زاهٍ يشع من وقت إلى آخر. وعند وصولها للصخور، صعدت إلى المسطح وهي تخطو كالعمياء وانتهت للوصول إلى مكان تستطيع الجلوس فيه. لقد استقلت حيزاً صغيراً جداً وظلت ثابتة في انتظار الظهور القاطع للشمس. لقد فقدت نهائياً غلاف الليل وسريعا لم تعد سوى قطعة مثلجة وبائسة. والعبارة التي كانت تسمعها دون توقف اختفت بعد ساعات قليلة. «أى انتظار...»

إذا تصادف قدوم أحد لكنت ألقى بنفسها في الخلاء، وصخب البحر يفجرها من الداخل في كل لحظة؛ وكأنه يتلاطم فوقها ليدمرها. إن البحر أراد تجميدها، وإصابتها باليأس، وهل من الممكن أن تستشعر الوحدة؟ أى شئ يبقى بعد ذلك؟ وهل يا ترى سترحل من هذا المكان؟... في العاشرة تقريبا، سمعت

ضحكات أطفال وهم يركضون فى الماء... إنه شىء لا يُصدق.
فالشمس تتلألأ وتنسكب من خلال أصابعهم. لم يبق لها سوى
ذكرى للون كلمة: غزال. لم يعد هناك وقت لأى فكرة تستقر
وتستمر حتى النهاية؛ فهي تستشعر الضعف مع كل ارتطامة
للموج ومع الرذاذ البارد بفعل الرياح والتي كانت تقطع البحر
جانباً... انتظرت دون أمل واضح... مشاهد مرت سريعاً...
العديد من النساء يؤدون الصلاة على حافة المياه. يوجد بالقرب
من مسكنها مزار للحجيج. إنها ذكرى قديمة جداً... فى قاع
المياه صادفت أشكالاً غير مميزة وتعاملت معها كأنها قبور
للأطفال... وبالقرب من تلك الحفرة، توجد توابيت من القرون
الوسطى. لقد خلطت الاثنين معاً دائماً. لقد قصوا عليها أن
هؤلاء النساء اللاتى توافدن إلى هذا المكان؛ كن عاقرات، ويقمن
بأداء الصلوات بالقرب من تلك الحفرة؛ لتصبحن أمهات. كانت
تعتقد منذ عهد بعيد، أن هؤلاء النساء كن يبحثن عن أطفالهن
فى الماء... كنا نشاهد بصعوبة الكتبان الصغيرة فى المياه
العكرة القذرة. وظلت تلك الحفرة كثيبة وحزينة فى ذاكرتها مثل
ذلك الفجر، والبحر البارد. لكنها تيقنت أخيراً استحالة احتواء
تلك المياه على أية توابيت... ظلت دون حراك حتى طلوع الشمس
وشعرت فقط بأن الضوء الأحمر كان أقل وضوحاً وإشعاعاً...
فى تلك اللحظة، شعرت بالعجز؛ فهي لا تقوى على تحريك رأسها
أو النظر للأفق. لقد تمننت أن يولد حدث من هذا اليوم!... هنا،
سيكتب الرحيل لشكل من أشكال الوجود... الأكثر أهمية لأنه

سيكون بشأن موتها! لقد تأكدت من ذلك وجاءت لتحصل عليه دون أن تدري ماذا ينتظرها!. فإن وقت التجربة مجهول بالنسبة لها... ومثل خروجها من الممرات مباشرة، كانت تحدث نفسها بأنها ستنتظر ثلاث مرات عودة المساء. إن انتظارها الأكبر يكمن في عودة المساء أكثر من الصباح. وذلك يستلزم تعاقب حالتين في الغالب: الأولى وهي التي ستختلط فيها مع شكل أرحب منها وهو الذي سيحتويها، وحالة أخرى تكون فيها حياتها متوقفة على خيط، وهكذا تكون حياتها وموتها متعادلين! ليس لديها مقصد ولا تعرف ما الذي سيصيبها ويقينها الأوحدهو الإحساس بإيجاد وقت. وأن ليلة واحدة لا تكفى. إنها لا تنتظر الكثير من الصباح، إنه فقط ممر ضرورى للوصول إلى الليل. سيصبح جسدها كالإسفنج بفعل أشعة الشمس، وإذا حاول أحد اختراقه سيصيبه بالدمار. ستصاب بالألم وهي تتقى المواد المذيبة مثل الرمال، الملح، والبحر... سيتسع الضوء الأصفر أمامها ويرتفع إلى عنان السماء مصحوباً بشئ من العذوبة والحذر أيضاً... وهذه الشمس القادمة هي الليل مع بطئه وضعفه وتردده. هل توجد نساء كثيرات مثلها، ينتظرن الضوء ويتأملنه؟ فهي تتأمل بحزن تلك الشمس التي ستغرب وتشع بالسواد... وكانت تستشعر نظرات جسدها بالطريقة التي تصورتها فهي في حاجة لتلك النظرة التي ستصاحبها طوال الوقت وعندما تتخلص من شعورها بالخوف تجاهه ستعود مرة أخرى لحياتها القديمة. النهار وحرارة الشمس هما الشيطان

الوحيدان اللذان استحوذا على اهتمامها. فشمس الليل تختفى وراء شمس الصباح وسيكون ذلك قاسياً وربما قاتلاً.

ومثل ظهوره القاطع مباشرة هناك لحظة توقف قلقة بداخلها البرودة والزرقة. سيرتفع منسوب البحر، وسيصبح خطراً، فالصخور حادة، مظلمة ولزجة، والقضاء كما تراه بعيد مثل الأفق الخالي يستحيل اجتيازه، كما تخيلته في الطرف الآخر من العالم المليء بالأصوات الأحادية. لقد كان هنا بجوارها ولقد أصابها بضيق في قلبها... ولقد أضفت الشمس لونها الأصفر على البحر، مما جعل سطحه يبدو ملوناً ومغطى بغشاء رقيق. في تلك اللحظة أفقدها البحر الكثير، ولكنها لا تتمنى سوى الاحتفاظ بقليل من الشعور والأنفاس. تستطيع الآن النظر للأشياء بحرية، بعدما هجرها التوتر،... ولم يعد لديها الرغبة للتحمل أو الاحتماء. كل ما كان يلزمها هو الفناء الكامل، والانسلاخ كلية حتى لا يتبقى لها شيء. فلا ملجأ، ولا عبارات محددة ولا إشارات ولا ذكريات تتركها لأحد. ستصبح قبيحة دون حديث ولا صوت لن يتبقى لها شيء تتخيل به مستقبلها أو غيره. وستصبح أنفاسها الدليل القاطع بأنها لا تزال على قيد الحياة. في أوقات كثيرة وخاصة فترة الصباح تعاودها رغماً عنها مشاهد الفيلم الذي شاهده وهي في الخامسة عشرة من عمرها... وجه لامرأة إيطالية سمراء وهي تستعد لهبوط السلم الخشبي ولكنها تتعثّر، ويسقط من يدها المصباح؛ فتشتعل الأرضية... وتزامن مع الحدث وجود شاب في الطابق الأسفل

شاهد الواقعة دون محاولة منه فى التدخل مما أدى إلى اشتعال المنزل سريعاً. وهكذا يحضر الرجل موت السيدة التى أحبها... لقد ظلت لفترة طويلة تتأمل البحر بلا ملل ويحتبس بداخلها شعور شاق وغير محتمل هو رغبتها فى الذوبان داخله ولكن انتابها شعور مفاجئ بالخوف. فالبحر لا يستطيع أن يتحملها أو يتقبلها مثل الليل ولكنها ظلت تستمع للفراغ والضوضاء. وتبحث عن أدق تميزاته، وقررت فى النهاية أن تتأمل السماء، وتتنازل لها عن نفسها لأنها لا تريد أن تُسحق أو تنهك. لا أحد هنا يدري بأنها تنتظر شروق الشمس والدفء البطئ للصخور، لأن نيتها المبيتة لا تزال قائمة ولكنها فى الوقت نفسه مكبوتة وكامنة... وهذا الانتظار يكفيها. ومصداقية ما ترنو إليه وتستشعره يحوى هذا الجسد الضعيف المهمل والذى لم يشد انتباه أحد... والعديد من الأشباح يروحون ويغدون فوق الرمال... شخصان يسوقان قارباً... وجرارات ضخمة تشكل نتوءاً. ومع عملية الجزر، كشف البحر عن الطحالب السوداء التى أخذت شكل مقدمة رمح... وعند حضورها إلى الشاطئ فى الماضى، كانت لا تفضل السير فوق النباتات الآتية بفعل المد والجزر والمغطاة دائماً بسحب من الحشرات الصغيرة. لقد أصبح كل شئ مسطحاً ومن ناحية الشاطئ، كان البحر هادئاً وينعكس عليه اللون الرمادى فى الأجزاء التى يرتفع فيها ويتحول إلى اللون الأخضر عندما تكون هُدياً لسائل أكثر غلاظة. كانت أمواجه تتصادم بهدوء ثم ترتد ببطء أكثر. وبعد لحظة ألقى

الماء تموجات طويلة فوق الصخور بطريقة غير متوقعة ومفاجئة. والآن استنفد الظل والنور دورهما، وكونا عالماً آخر أبعد مما كانت تستطيع أن تراه. كان عالماً ضائعاً، لا يُحتمل. خلف الشعاع، وخلف الأشكال الرمادية والنحاسية الحمراء والتي يتخللها خطوط صفراء، كانت تتوقع رؤية مراقبين أو كائنات شاحبة مكتسية بالبياض؛ يتقدمون ببطء وبصمت مُحذقين بأعينهم. وإن إحساسها بهذا العالم الآخر الذي لا تعرفه يُصيبها بالحزن. واللحظة، شعرت بأنها عادت لحالتها الأولى. ولديها الرغبة في الموت، ولكنه موت يُصيبها بخوف، وميتة تتمناها عندما تصبح حياتها لا تساوى شيئاً، وحينها تشعر بالوحدة أو تتأكد أنها لن تصبح الإنسانة التي تحلم بها. تلك الميتة هي العقبة!! وإذا أنهت حياتها الآن سيدل ذلك على أنها حية على الدوام وستظل هكذا أيضاً في الموت وستعطى مبررات بعدم قيامها بأداء واجبها الذي لن يتم أبداً ولكن هذا الموت سوف يُخبئها بالرغم من الشمس التي تعطينا الإحياء بإخفاء عالم آخر... ونجحت للنظر إلى السماء منذ لحظات قليلة وكأن السماء قد أصابها شيء من التردد فهي لا تقود الآن إلى عالم آخر حزين، بارد المشاعر ولكنها تفرض عليه لوحة: سُب كثيفة براقعة ورقيقة تكون شكل هيكل صخري تندفع عليه شلالات عظيمة وشاسعة... هناك نشاط يكاد يكون محسوساً بين السحب ويُعطى الانطباع بأن هناك مياهاً تتدفق بلون وبريق الصدف. وفي نهاية هذا المسقط تأخذ السحب المكدسة شكل

الרגوات، ونظرت طويلاً لهذا الموج المرتفع القوي وهو ينهمر ببطء غريب يقطعه التوقف في بعض الأوقات. أما المشهد فإنه يشبه اللوحات الدينية مع انسكاب الضوء شيئاً فشيئاً! لقد أصبحت السماء بالتدريج شيئاً محسوساً يفرض وجوده كأنما تتحرك وتُسْتثار وكأن الأرض والبحر قد طُمسا واتحدا معاً... ما الذى سيأتى من السماء، وهل يبقى لها مستقبل تمنحه لها؟ من بين كل هذه الأحلام والتطلعات التى كانت تريد تحقيقها، هل سيبقى لها حلم أو هدف تستطيع أن تستكملة ويحرك مشاعرهما؟ ولكنها تجد دائماً صوراً للماضى الذى له علاقة وثيقة بواقعها الحاضر، لذلك هى مطمئنة بأنها لم تصب بالجنون. منذ أعوام قليلة، كانت تمر كثيراً بالطريق الذى يَحْدُ الشاطئ. وحين يشتد البرد فى الشتاء أو عندما تهب الرياح بأشباح متناثرة على الصخور تكون جالسة فى ثبات دائم مثل الأصنام الحجرية ولا يزال فى ذاكرتها نساء أكثر من الرجال وهم يؤدون الصلاة متطلعين للبحر. لقد امتصوا كل شئ وتخلصوا من معاناتهم. وحتى رحيل أندريه لم تتخيل أبداً الوحدة وتصورت بأننا نستطيع أن نختار بين الوحدة وعدمها وبنفس الطريقة، كانت تعتقد منذ لحظات قليلة أن الموت أصبح شيئاً بيناً... وفكرة الاستمرار فى الحياة تظهر، فى كثير من الأحيان، كأنها جُرم مؤجل! عندما بلغت اثنى عشر عاماً وأرادت الذهاب للمدرسة، كان عليها المرور أمام قبلا مهجورة كل يوم. ولم تنس أبداً أن ترفع رأسها تجاه الشرفة. وفى كل مرة كانت تشعر بالطمأنينة

كلما مرت ووجدته هناك! وكان يتردد كثيراً بين الناس... بأنه سيترك نفسه للموت لأن المرأة التي أحبها تركته. وكل يوم كان جسده يفقد الحياة، يوهن ويضعف. ومن الواجب أن نأتى له بالطعام بالرغم من أنه يملك ما يكفيه ولكنه منغلق على نفسه فى بيته كأنه فى الحبس، لا نستطيع أن نحدد بوضوح وجهه من بعيد ولكننا نرى أن عينيه زرقاوان ونظرتة مفترسة. هل كان ينتظر الآن مثلها حدوث شئ له، وأنهم سيأتون للبحث عنه... خطيبته مثلاً... وأثناء النهار، كانت هناك لحظات هدوء، تحاول أن تبحث فيها عن الحياة، متناسية وضعها... تفكر بحرية تامة، متخوفة من أن يفقدها أحلامها الوقت، وتتركها إلى الأبد فى هذا المكان. يجب إبطال قوة تلك النظرة الخارجية التى أصابتها بالوهن وبقلة الأهمية إذ أصبح العالم ظاهراً لا يتعرض للسلب، ويتفحصها بدقة قبل الوصول إليها، سيصبح جديداً فهى تراه وهو يصعد ببطء كالغريق ولكى يصل إليها ذلك الحدث يجب أن تتجرد من كل شئ. فى بعض الأحيان كانت لا تفكر فى شئ على الإطلاق ولا تزال فوق الصخور والشمس ساطعة وتحاول إزالة بلورات الملح من جلدها... وفى لحظة ما سيطر عليها انطباعها تجاه الليل عندما شعرت بوجود صورة داخل صورة. لقد أصبح وجودها وقتياً تحت لفح الشمس لدرجة أنها شعرت بالتلاشى... وأثناء ضلالتها المؤسفة؛ تحولت إلى مادة سماوية بل أصبحت أثيرية - بعد ذلك - سمعت صوتاً مرتفعاً، إنه صوت عصفور بلاشك. لقد أصابها بالخوف وأعادها للواقع

واستعادت وعيها كاملاً. لم يتبق لها سوى السماء الزرقاء وكون
شاحب اللون كأنه حطام. وتحت الضوء شديد البياض عادت
مرة أخرى للانتظار ولم تجد ضرورة للوجود فى نفس المكان.
لقد فقدت كل قواها... واللانهاية للبحر أعطتها الشعور بالتراجع
بعيداً تحت الضوء الساطع. كان المدى دوماً أبعد مما تنظر،
وأبعد مما تبحث، ومع تطلعها للسماء كانت تعيد رسم العديد
من المشاهد الطبيعية والممرات الطويلة التى طالما تخيلتها... تلك
اللوحات ظلت باقية هنا فى الحفظ والصون بالرغم من كل ما
نتج عن حياتها خلال الساعات الأخيرة... لقد وجدت فى تلك
اللوحات مناسبة، ومهلة للتوقف فى النهاية التى كانت تتمناها.
وأقصت من أحلامها كل الأشخاص التى عرفتهم من قبل ولامت
نفسها لأنها لم تستطع أن تكشف ما بداخلها... فهى تستشعر
بالهزيمة المؤسفة، والإهانة البائسة التى تصحبها فى كل مرة.
يجب أن تتسم أكثر بالصلابة، ولا تتراجع، وتستكمل المواقف
الناقصة، الطائشة التى تثبت عدم خوفها من الموت. وعندما
تشعر بأن الموت أصبح مألوفاً عندها، ستذوب النظرات، إنها
على يقين من ذلك، لأن الموت والنظرة سيختفيان معاً مثل المياه
التي تتشربها الأرض. كانت النظرة متصلة بالموت الذى
سيجرفها إلى نهايتها لأنها أكثر صلابة. واستشعار تلك النظرة
كان مُسلطاً عليها دون توقف كأنه دليل خوفها. لماذا لم تستطع
التخلص من هذا الشعور؟ وإنها لم تعرف أبداً كيف البقاء؟ هل
تبقى بدونه؟ إنها تبدو بسببه مثل التعساء المجانين...

الفصل الخامس

لقد تمددت فوق الصخور حيث لا ترى إلا بصعوبة وهى مستلقية... أغلقت عينيها وأصبحت جفونها دقيقة وشفافة. الشعيرات تجرى تحت جفونها كالحيوانات المذعورة. تتقارب وتتفرق بمهارة. لا تستطيع مقاومة النور القاتل الذى يخرق جفونها المغلقة. وبعد وقت طويل عندما أصبح البياض لا يحتمل، حاولت أن تتحول عنه تاركة نفسها لغزو الحزن لكن بلا فكر محدد. حاولت أن تحمل على عاتقها دفعة واحدة؛ كل إحباطات حياتها. وعرف جسدها حالات متعاقبة أفضت إلى الغربة بينهم وفى اعتقادها تصور بأنهم سيبدلون كينونتها ولن تجد نفسها. وذلك لن يتم إلا عن طريق التخلي التام عن جسدها... أرادت أن تعرف أحاسيسها، وتكشف جميع النقاط التى عن طريقها سيلمس جسدها الصخور، وتعيش الآلام التى ستصيبه. لا تريد أن تتحاشى شيئاً. ستتجفف تحت الشمس مثل المحبين اليائسين تحت سقفاها! لقد أصبح جسدها طفلاً سعيداً بالتنفس وبالحياة، لقد تمت أن يأتى الموت ويتمدد بجانبها، مثل الرفيق الودود.

ما كان يحدث ذلك لو أنها سُلبت من كل شئ. وحينئذ ستختفى النظرة لكى تتصل بهذه الهيئة القريبة منها، والأكثر رقة. لقد صور لها فكرها بأن الموت شئ ملموس أكثر من تلك الحالة القاسية تحت الشمس وإن الدخول فى الموت مثلما نبدل

ملا بسنا... ولن تشعر أبداً بالبوأس ولا بالجبن. وفجأة! ستتبدل أفكارها وتصبح أكثر واقعية. هل هناك شيء يجب عليها القيام به ولكنها تجاهلته؟ وهل استطاعت أن تحمي نفسها منذ أن تركت شارعها؟ ودخلت بعد ذلك في حالة نصف الوعي. لقد وصل إليها رذاذ الأمواج عند ارتطامه وأجبرها على تحريك رأسها. فهي لا تعرف أين تكون، ولا تستطيع أن تتهرب من حالتها في الغالب ويجب عليها الاستمرار إلى أن يصل بها الحال للتحول لشكل طحلبى أو حيوانى، نباتى أو معدنى أو قطعة من الخشب الميت الذى يتجمع حوله العصافير. كانت تشعر بأقدامهم السريعة فوق جلدها وكأنها تخدشه. وبعد فترة، انتابها شعور قلق: كأن شخصاً ما يتنفس بجانبها. هذا الاستئناس الحميم ما لبث أن اختفى بسرعة! لمحت مرة أخرى خيالاً بجانبها؛ فأحسست بالسعادة والمرح. وكأن هذا الشخص يلهو معها. يا ترى هل هى سيدة؟ هى لا تستطيع تأكيد ذلك. ولكنها هيئة بيضاء. هذا القرب سيوضح لها كل مظاهر الحياة من حولها: العصافير البيضاء أثناء تحليقها، أصوات النداءات فوق الشاطئ، سقوط الأمواج، انزلاق قارب من بعيد... وحتى الضوء كانت تتبعه، وحولت كل هذا إلى رسائل ملموسة. وعندما يصل إليها صوت أو رائحة، ينتابها الشعور بالحصار. وتفرض عليها فكرة: «حقاً، أنا هنا» وتتذكر نفسها كأنها لم تجدها منذ أن رحلت عن مسكنها. وتعرفت على حالتها البائسة، الضائقة فوق الصخور... لكن لا... لم تكن بائسة ولا وحيدة إنها نصف

شفافة وذات ألوان ضعيفة. والظلال الكثيفة تخرقها من وقت لآخر وتصيبها بالفزع الشديد. هذا الشعور يتغلب عليها عند مرور طائر أو بفعل مرور تيار هوائي. الشعيرات الملونة تحت جفونها لا تهدأ. وعندما يتحركون ينبعث منهم من حين لآخر لون أحمر دموي. حتى هي في لحظة ما كانت تتحول إلى مجموعة من الشظايا التي تسقط سريعاً فوق الصخور، لكن دون كارثة أو إصابة وجسدها يشعر بشدة الارتطام التي تلقتها بغتة، كم كانت قوية ومفاجئة! مما أعطاها الشعور بمعجزة أنها لا تزال على قيد الحياة بعدها. وعندما كانت تغلق عينيها وتفتحهما؛ تجد مجموعات من الأشكال السوداء والصفراء تتحرك بسرعة صاخبة. ومن جهة أخرى لم تغفل اقتناعها بأنها لا تزال كما هي وهذا ما لا تتحمله. إنها تستطيع أن تحيا في تلك الحالة السيئة التي هي عليها الآن، سيكون ذلك رديئاً ومعتماً ولكنه يختلف عن الموت. هذا ما شعرت به في تلك اللحظة فوق صخرتها الجرداء المظلمة والخالية من الرياح ومن نداءات العصافير... إنها لا تزال داخل الحياة المركبة والملونة التي تود أن تتقبلها وهي بذات الهيئة الضعيفة تنظر للأشياء بلا مبالاة وتحتوى من الشمس الحارقة وتقوم ببعض الإيماءات التي تظهرها كأنها مزعزعة وآيلة للسقوط في الفراغ... فهي بعيدة عن الخطر طالما أنها لم تغير موقعها، حتى النسبة بين الظل والنور تصيبها بالضيق لو شعرت بالتغير داخلها. لو حاولت النهوض لوقعت في حفرة ولن تقوى مرة أخرى على القيام. في وسط النهار يكون الشاطئ أكثر

هدوءاً والسماء أثقل وأكثف من البحر؛ لذلك تحاول أن تتصل به ولا تترك سوى مسافة ضيقة جداً للأشخاص و لها. حاولت أن ترسم العديد من المشاهد الطبيعية المختلفة لكل ما يدور حولها ولكن أين ستجد البحر فى تنقلها. لقد سمعت أصواتاً عديدة بجانبها. هناك ثلاثة رجال لم ينتبهوا لوجودها. يتحدثون بهدوء لغة أجنبية غريبة. لقد جاعوا لتناول بعض السندوتشات فى الوقت المحدد لوجبتهم لكنهم لم يروها. كانت تتوقع نظرة مفاجئة لكنها سقطت من جديد فى دوامة اليأس... النظرة جاءت لتتراكم على النظرة الأخرى المتفحصة، حتى لو أرادوا بها مواساتها، أو رثاءها، أو ليخرجوها مما هى فيه ويشعروها ببؤسها... ولكنها أرادت نسيان كل الأشخاص الذين عرفوها، وستقوم بفعل ما يستوجب ذلك، و ما لبثت أن تمردت على الفكرة التى تتطلب منها مشقة. وفضلت أن تلزم الصمت، ولا ينتج عنها أى إشارة عندما يكتشفون مكانها... ولو أرادوا أن يقدموا لها يد المساعدة فسيصبحوا مسئولين عن جثتها المزيفة لأنها لن تحاول أن تساعدهم وعليهم أن يتدبروا أمرهم معها. ستكون وجوههم الملطخة بجانب وجهها، وسيتعاملون معها عن قرب. وعليهم أن يتحملوا ذلك بدافع أنه واجب إنسانى؛ فهى ترفض أن تصبح شيئاً كريهاً. وتساءلت؛ هل كل الأشخاص الذين عرفتهم من قبل يعرفون هذا؟ ما الذى كانوا يمثلونه لها وهل أحببتهم، وهل مازالت تحبهم؟ وعندما تكون واضحة مع نفسها؛ تدرك انفعالاتها المحتدة، وخوفها من هذا الانشطار الذى يصاحبه

حالة من الجنون العارض. لقد انبعثت من داخلها أشياء غريبة: أشخاص يتحدثون، يتمتمون بكلمات سريعة. كل شخص منهم له صوت مميز بنبرته لكنها حينما تحاول أن تميز واحداً منهم تتداخل باقى الأصوات غير المفهومة كصراخ شخص مجنون. تلك الأصوات التي تتردد بقوة لم تكن سوى صراخ أطفال، أو اجتماع لجميع الأصوات الواردة إليها. لن يستطيع أحد أن يشتبه فى حالتها هذه، مع كل هذا الهدوء الذى تظهره لكن كان لديها الإحساس بأن شخصاً ما سيأتى لكى يوقظها من غفلتها. كانت القوارب تأتى إلى الشاطئ، بينما رُصت المناشف فوق الرمال على شكل مربعات من مختلف الألوان... الأطفال يمرحون وهم يطلقون صيحات قوية... العصافير الآتية من الأماكن النائية تطلق الصيحات بدورها وتصيحبها بالتمزق... تلك العصافير تأتى من الجزيرة المضيئة نحوها لتخبرها بالأنباء الجديدة لهذا العالم وما وراءه. إنها عصافير مختلة عقلياً. وأصواتها غير محتملة... وفى لحظة ما، اقترب من الصخور شخصان، رأتهما يجلسان جنباً إلى جنب ويبدو عليهما أنهما متحابان. من وقت لآخر كان قارب يتتبع خطاها بسلام، لكنها انخرطت فى البكاء. هذا القارب يمثل بالنسبة لها الحب والمجهول ويحمل معه كل المعانى... وصراخ العصافير كان بمثابة عقاب،... فهى تصرخ لجذب الانتباه حيث كانت على يقين بأنه سيجن جنونها وتموت فى هذا المكان... الشك ينتابها دائماً: هل جاءت إلى هنا لتموت؟ وهل ستلقى بنفسها فى الماء بعد ساعة؟

كانت لديها الرغبة الملحة فى مجئ رجل فى أى لحظة من النهار، فهى تفكر فى الحب كأنها لم تعرفه من قبل. فجلستها هذه ليست إلا مهلة... لأنها لا تتوافق مع قرارها بالانفصال عن محيطها وتفقد القدرة على الانسلاخ عن نفسها عندما تتعدد بداخلها الشخصيات ويتولد الانفجار والتشتت؛ ليقودها لفعل أى شئ. وأثناء جلوسها، كان يجول بخاطرها كل ما أخفقت فيه، ثم سقطت فى الخوف من الأخطار القادمة من المحيط الخارجى. لقد أخذ العالم والفضاء التدابير اللازمة... إنها تخاف من برد الليل القادم بعد ساعات قليلة. أثناء جلوسها؛ شعرت بإمكان تعرضها للعطب ولكنها على دراية بعدم وصولها لنقطة الجنون واكتشفت من جديد دورتها الدموية، ذكرياتها، أذرعها. والأفق عاد من جديد ليكون هذا الخيط الرقيق والناعم الذى يهدئ من روعها. لقد رأت بحيرة تتخللها الأشجار والخضرة كالغابة من خلال الألوان العديدة سريعة التغير للسماء، وعرفت للحظات السعادة وهى تنظر للبرارى على حافة النهر. هناك طريق مؤد إلى جماعة من النساء والرجال السعداء... البحر يفرض نفسه من جديد، أما هى فتفكر فى الهاوية: سيكون البرد شديداً على عمق مئات من الأمتار. من أين جاء هذا الخضار العجيب الشبيه بالزجاج؟ عندما كانت صغيرة، كانت دائمة التساؤل عن الشخص الذى يقوم بصبغ الزجاجات؟ ومنذ أن أخفقت فى تعلم السباحة أصبح البحر يمثل لها مصدراً للخوف! وكانت تعرف ماذا يعنى أن تُفقد فى هذا الخضار الذى لا تستطيع التعلق فيه

بشيء لنعومة ملمسه. ومن على تلك الصخرة لا تفعل شيئاً سوى الانصهار مع الليل؛ لمعرفة قدرتها على الاهتمام وخوفها من التدمير الذى سيحدث داخلها: سيحتقرها الجسد، ويفقد انعكاساته ومخزونه من الأحاسيس... كانت الأمواج تلهب أقدامها أثناء استلقائها ماعدا وجهها الذى أصابه الاحتراق، وأثناء الجلوس كان الجسد يروى غلته كاملاً. إن هذا المكان يتسم بالغليان: الصخور، الطحالب الغليظة، البحر والشمس... كل هذا أصابها بالرعب... لأن التصرفات البسيطة وكل انطباع كان يأخذ سريعاً صفة الأهمية: الجلوس، النظر للسماء، ووضع اليد فوق صخرة. كل ما كان يحدث لها ضرورى ومحتوم. فهي لا ترى الوقت الذى يمر، كله متشابه ومختلط داخلها. الصور، الذكريات وأجزاء المكان التى كانت تتعايش معها بعضها ببعض. وبعد مضى لحظة قصيرة، وفى وسط النهار تيقنت بأن صخرتها كانت محطة للحراسة، والمراقبة: فهي مكلفة بحماية الشاطئ، وتدوين السابحين المتهورين والفرقى، لكنها نسيت سريعاً مهمتها... وهذا النتوء فصل كلياً عن الأرض مرة أخرى... بعد ذلك شعرت بالفزع لأن كل ما يحيط بها أعيد تشكيله بطريقة أخرى. لقد انتابها شعور بتضخم جسدها. ولهرب من تلك الحالة؛ كانت تريد أن تتمدد لكن بشرط إقصاء الأحاسيس والضغط وبعض الذكريات أيضاً التى تنصب عليها لكنها تفشل فى ذلك لقوة تأثيرها عليها. كانت الذكريات تطفئ عليها... تضغطها وتخنقها... الصور تغزوها؛ لكنها ليست بذكريات

حقيقية ولا هى بأحلام، إنها صورة، ضوء فلاش آخر، وتتوالى سريعاً وكلمات تأتى فى نفس الوقت: حب... فهى ترى العديد من النساء والرجال على الشاطئ، لكن سرعان ما تختفى تلك الأجساد لترى متاريس وحائطاً يلتصق عليه الشحاذون. الحجارة تأخذ اللون الأحمر، والمتاريس تبدو مرتفعة عند غروب الشمس والملابس مهمة على الأرض، مدهوسة وقذرة، وبعض الأشخاص يرقدون فوق المقاعد فى الظلام. عند مرورها من أمامهم، كان البعض منهم يعتدل فى مقعده لكى يراها وهم يضعون أيديهم على مقدمة الرأس أعلى حاجب العين. فهى مثلهم، ماذا سيحدث لهذا الجمع المنتظر؟ لا أحد يعرف؟ ولأول مرة أصبحت مثلهم؛ فهم جميعاً منتظرون. لقد حاولت الاحتفاظ بتلك المشاهد حاضرة... والتي كانت بالتأكيد تريد أن توضح شيئاً وتحتفظ بالحل الذى تبحث عنه. وكلما أعادت التفكير فى تلك المشاهد، ينتابها ضيق. فكيف تستطيع أن تفسر لعبة الإضاءة: السور الذى تراه كان يأخذ لون الأحمر للزمان. كانت الظلال كثيفة؛ ولكنها مضاءة بنور القمر فى المساء. هناك العديد من الألوان الداكنة، كالبني والأصفر لكنها مطحونة تحت أشعة الشمس البيضاء. هؤلاء الأشخاص متشابهون معها، وألفت نظراتهم وظلت ثابتة أمام وجوههم وحلت كل رباط بينها وبينهم. فهى تريد الانشطار: سيكون ذلك كالفجوة التى تنغلق عليها، وستصبح غامضة ووحيدة بين جدران جسدها. وعندما تتلف صورة، كانت تمر إلى غيرها وظنت أن تواجد صورة قوية

سيفقدھا كاملة... إنها دائمة التفكير فى المسافة التى تفصلھا عن المياه على عمق خمسين مترا. وفى خلال ساعة أو نصف الساعة ستكون فى عداد الموتى. هل جاءت إلى هنا لتناله أم لتجاوره فقط؟... إذاً لماذا هذا الدفاع؟ أى كآبة، وأى غموض لكونها هنا على هذا المرتفع المتأجج بالغليان. هذا هو الانهيار الداخلى المتعارف عليه... متى ستشعر بالاكتفاء وبأن التجربة انتهت؟ هل هناك شئ جديد؟ لو أن شخصاً اقترب منها لأجهشت بالبكاء وتوسلت إليه. ستساق مثلما كانت من قبل فهى ترغب بشدة وبيأس أن تتوارد الصور إليها فهى تكمن فى جسدها، هذا العالم الذى ينتمى إلى مادتها. وفى تلك اللحظة شعرت بكثافة العالم من حولها. كان يوجد بجانبها أشخاص واقفون. إنها على ثقة من ذلك، واستشعرت ظلهم لكن ضوضاء الشاطئ تبدو لها مختلفة. يتحدثون بصوت منخفض وضجرين من وجودها فى المكان: فهى امرأة ممددة، مغلقة العينين، ترتدى ثوباً أبيض ملوثاً وتتهدل أوصال شعرها على كتفيها. فهى لم تختار حتى هذا المكان الجاف. ولم يرصد انتباههم سوى ثوبها المبلل داخل بركة مياه صغيرة ويدها القابضة على بعض زبد البحر قد انتزعته. لقد أخفقت فى تعديل وضعها سريعاً، لكنها قررت أن تتظاهر بالموت لكى لا يقتربوا منها ولا يمسوها وإنما لينسوها. لقد انتهى بهم الأمر إلى التراجع. مع ذلك ظلت مكانها مع ملاحظتها بوجود ظلال سوداء ملقاة عليها. لكن الواقع مخالف لذلك؛ لأنهم لم يكونوا بجانبها. وتلك الشرارة جعلت

عقلها أيضا فى اضطراب، بينما حالتها الداخلية كانت أفضل ولا تملك الحرية فى التفكير. وتظل لفترات طويلة جامدة حتى تنساها... دائما ممددة، وكأنها أصبحت الشق الذى يحوى هذا النتوء الذى ظلت طويلاً معلقة فوقه منذ الصباح. وأخذت الأمواج فى حمل جسدها الساكن الذى أصبح يطفو. فهو لا يرغب فى شئ، إنه لا ينتمى إلا للأرض، الرمل أو حتى للحجر وهو لا يسترعيه شئ يحدث له ولا أحد سيتذكره. لا شئ يؤثر فيه... لا الوقت ولا التدميريات الخارجية والإتلافات الطبيعية... وقريباً سيتولد جسد بلا معالم ولا تاريخ. والنظرة التى كانت تتبعها بدرجة من القسوة والإهانة ستلحق بها أخيراً.

هل الحب كان بعيداً عنها بنفس مسافة تلك النظرة؟ فى كل مرة كان يتمثل أمامها الرجال الذين أحببتهم محل تلك النظرة وهى سعيدة بذلك، لكن المعجزة لم تدم طويلاً وحاولت أن تتمالك نفسها وأن تكون أكثر وضوحاً، وتدير فكرها ولكى تتوصل لذلك كان عليها أن تُقصى الصور، القصاصات الملونة؛ المشاهد واللوحات التى كانت تتداخل وتحوم. فهى تتجدد سريعاً لدرجة تفقدها الإحساس بجسدها وتُنسيها اسمها والمكان الذى أتت منه. فى البداية كانت تظن أنها وجدت الإجابة عما تبحث عنه! فهى مندهشة من ذلك وفيما بعد خافت على نفسها من الجنون. لم يكن عليها إلا أن تضع يدها فوق صدرها أو على ذراعها لينتظم كل شئ. كانت تتسمع للترددات والاهتزازات التى تصدر عن جلدها، وعن تنفسها والنشاط الداخلى أيضاً لجسدها وتكون

جميعها شبكة حية. فهي تبكى حيناً وتطغى عليها عاطفة جامحة وقد تركنا جسدها هنا مهجوراً. لا يُحزننا أن تكون هنا نسياً منسياً، لكنها فقط متأثرة ومصدومة والتحمت دموعها داخلها؛ لكي تعيد لها نظرتها... لم تعد تبكى كما كانت تفعل من قبل لإحساسها أنها لم تستطع تحقيق حلمها، وسريعاً تذكرت: يوجد دموع لدى. إن القوة الغاضبة الساخطة المحيطة بها لم تعد تشعر بها نهائياً لأنها اختفت ولا تُعير لها أى اهتمام. وكل مظاهر جسدها الأكثر دقة مثل ارتفاع صدرها أثناء التنفس وعند تحرك خصلة من شعرها بفعل الهواء وتُغطى وجهها كانت تمثل لها سعادة كبيرة كالطفل. فهي منتبهة جيداً لكل الأحاسيس التى تتوالى دون إحداث تداخل مع غيرها لكنها لا تدوم طويلاً لذلك تبحث عن أحاسيس لا تُشعرها بالوحدة وكل مكونات وجودها ستأتى نحوها ببطء: الصور، النظرات، وحتى دورة الهواء. ويتجمعها تتكون مادة لن تتعرف عليها سريعاً. ولا تستشعر جسدها بالقدر الكافى ويجب إضافة المزيد من الأشياء لكي تحيا وتستطيع إثبات حجمها ويصل إليها هذا الإحساس عند النظر للبحر وتتركه يقتحمها كما يقتحمها الظلام. فهي تخاف أن تدنو منه كثيراً، وتهديه نفسها فى اللحظة التى تجهل فيها السبيل للهرب منه. لقد بدا لها البحر كالحوان بسذاجته وخطورته وشعرت بنباتات الرمال والنتوءات والبروزات التى كانت تتلاشى عندما تتحول إلى بحر وتخيلت اشتعالاً أكثر ضراوة. وهذا التضارب بين المياه الكامنة الباردة وبين جسدها الحى فى

اللحظة التي سينتهى فيها. إنها تشعر تماماً بالمادة التي سينتج عنها بريق الفضاء وذلك لن يستغرق سوى ثوان معدودة دون مستقبل. إنه طريق مسدود. منذ أن تخيلت المشاهد بالقرب من الأسوار، فهي لا تستطيع أن تسعد بجسدها كما هو... وكل ما كان حولها لا يكفي. كانت بحاجة لتلك اللوحات بألوانها المتعددة المظلمة بقدر ما ينقصها في تلك اللحظة من الظل تحت الشمس. لا توجد وسيلة للتراجع، هل كل هذا البياض كان محتوماً بالضرورة؟ كان جسدها غارقاً في ذلك البياض... واستمر يمثل عائقاً، واللحم الذي يغلفه كان رقيقاً... ستتصهر سريعاً وتختلط عظامها بهذا الضوء الميت. يجب أن تجد مرة أخرى الظل. فهي تبحث عن اللون الأصفر والبني المائل للاحمرار الذي سيعيد إليها الحياة... بل تبحث عن الأسود أيضاً. كانت لديها رغبة شديدة في رؤية العديد من المارة مبتسمين. وصاحبها إحساس دائم بأن الفضاء والشوارع تبتلع العالمين... كانت تراهم دائماً من بعيد لا يتبادلون الحديث بينهم وعندما يتحدثون لا يأخذ ذلك طابع الحياة. لكن ما يؤخذ في الاعتبار أن ما تبقى لديها، هي الطريقة التي يظهر عليها الناس. فهم يسرون ظهورهم لها وترى من علٍ مناظر بعيدة. تتطلع لرؤيتها من قريب لترى ابتسامتهم الحقيقية الودية بشكل واضح فهي تريد أن تكون المحرك لجميع المشاهد، حتى تجهد نفسها لاسترجاع اللوحات التي تحوى المتاريس؛ لكنها لا تنجح إلا في إحياء الأشخاص القادمين في الشوارع؛ لمدينة قديمة وخاصة لرجل وامرأة

يتقدمانها يرتديان نفس الملابس ويبدو عليهما التهرب منها ولكنها تريد أن تستوقفهما ومصاحبتهما! أدوات تلك المشاهد تتكدس أمامها لتكون في النهاية سحباً من الغيوم والألوان. تلك الأدوات كانت تتقلص أحياناً بفعل عامل الاحتكاك والضغط. كل ذلك يتلاشى وراء الأسوار التي تنغلق سريعاً؛ خلف الأبواب التي بداخلها ظلال الأشخاص والأدوات التي تستمر في التواجد. مبدئياً... تحاول التسلل داخلهم... وإذا حققت ذلك، يكون إنجازاً هائلاً لتخطو داخل مدينتهم! ثياب النساء تأخذ لون الباستيل وتمتد حتى كعوبهم. إنها تريد الاحتذاء بهم وألا تتميز عنهم في شيء! المدينة جرداء تعلوها البنايات المرتفعة. والظلال المرسومة، لا تعطى حياة للشوارع. أصبح كل شيء واضحاً مضيئاً. والوقت الذي تقضيه مع هؤلاء الأشخاص تبدو فيه متعلقة ومرتبطة بوقت اقترابهم، وبلحظة الفراق. لقد منحها هؤلاء الأشخاص لحظات قليلة من حياتهم. وهذا يظهر بوضوح على وجوههم من التصرفات التي تبدو عنهم... لكنها قرأت بمرارة تجاهلهم لوجودها... هي شاردة بينهم. ومن الجلى أنها لا تحظى بأي اهتمام أو مجرد سعى للاحتفاظ به... هي على يقين بالتوازن الرقيق الذي يربط بين حياتها ونظرياتها... هناك رسائل عديدة موجهة إليها ويجب ترجمتها لكن الجو المخيم على المكان كان أكثر أهمية من الأشخاص أنفسهم ومن تحركاتهم وتعبيراتهم للصور الخاطفة تتلاحق وتصلها على شكل أمواج تتلمسها برقة، وتحاول بقدر المستطاع أن تلصقها في ذاكرتها

التي تتسرب منها تلك الصور المتلاحقة وتصبح مشوشة. لقد استغرقت وقتاً إلى أن تداركت نفسها لتتحاشى فقدانهم، وتصبح غامضة! وأجبرت نفسها على النظر للصور التي تُعرض أمامها بشكل منفصل لكن الانتباه شمل الكل؛ بدون التوقف عند التفاصيل. بدأ الشكل النهائي لكل مشهد في التفكك أمامها عندما تيقنت أنها هي التي ابتدعته. وأخذ ظلها في إخفاء وشجب كل ما ابتدعته منذ لحظات قليلة وتوقعت استمراره طويلاً. وفي لحظة تأملها للعمل؛ يفقد بدوره تأثيره، ويعطيها الشعور بالأسف لعدم اكتمال الأشياء حتى نهايتها. وأخيراً فرضت عليها رؤية وحيدة لنفسها: السكون الذي أصابها داخل مقعد حديقة مصنوع من الخشب وهي ممسكة جيداً بالمساند واللون الأصفر يطغى على المكان، وشعورها بالوحدة يتضاعف... في مقعدها تقاوم شيئاً لا تعرفه؛ ليست الرياح ولا قوة الشمس، ولا الألم الكامن في جسدها بل شيء يتعلق بمقاومتها خوفاً من الاختفاء، والتلاشى التدريجي! فهي تخشى على نفسها من الانصهار كتلك الصور... بعد ذلك ذابت في لون أصفر قاتم؛ ذكّرها برياح الصيف... رياح السكون التي يصاحبها أي صوت يمكن تمييزه وتكمن في بعض النداءات وليس الصرخات الشديدة! إنها نداءات شخص يريد فقط إثبات وجوده بعيداً، دون أن يكشف عن مكانه، أو ننضم إليه. هذا الشخص يريد فقط إخبار المسافر المفترض أنه ليس وحيداً مثلما يتخيل. كانت تُرى جامدة فوق مقعدها في مهب الريح.

وتريد أن تتوغل أكثر فأكثر فى كثافتها وتبحث بيأس عن الوسيلة للوصول لذلك. وتعتقد أن الرياح تصيبها بالصمم وبالتالي يجب عليها الشعور بغياب النطق والصوت. فى وقت ما من حياتها كانت تتعرض لعدم الرغبة فى الحديث لكنها لا تريد أن تشعر بأنها مجبرة على ذلك. فهى تود الاحتفاظ بما تبقى منها. صمتها... لا يرى مع غياب المتحدثين فى الضواحي. إنها متضخمة ومطوية فوق صخرتها، وتضع ذراعها بجانب جسدها وكأن الصمت نسيجها الجلدى... وعاشت دون ألم، ودون انتظار، فى حالة من الرفض الجذرى لأحاسيس جسدها وخوفها. وأثناء بحثها عن الصمت؛ حاولت الفصل بين التواجد الجسدى والصور... وبعد أن نجحت فى إيجاد وجود للصمت حاولت أن تعطى القوة للمحيط حولها. كانت الأدوات تتواجد تدريجياً، وتشكل شيئاً مسطحاً... وصخب البحر يجمع هذا كله. وبعد لحظة أصبح شيئاً متكاملًا ومتلاحماً، وكان الفضاء داخل هذا الصخب قد تصلب وتداخلت هذه الأدوات واحتفظت بطابع السكون والوحدة. لقد تلاحقت السكينة واطمحل الحوار بسرعة خاطفة... حاولت أن تستفيد من الليل والشمس والصور. وانتابها إحساس بمعرفتها الوثيقة بالصمت أكثر من الآخرين الباقين وانهارت الجسور بينها وبين الآخرين مع تخلصها من جميع الخيوط والتي تشمل العبارات غير الصحيحة والتي تقال دائماً بإدراك ووعى... ووجودها فى الصمت لا يقاس بقدر ما حدث لها داخل الليل... كانت تعتقد أنها تنشد ألا تُكتسح ولكنها

وجدت نفسها متشبعة بهذا التواجد الذى يكون البصمت مادته،
وشعرت أن وراء ما تراه وخلف نشاط جسدها جسد خامد.
وظلت كثيراً تراقب بحرص لمراقبته. كان لديها رغبة فى دمج
الحالتين، اللتين تفتقدان للحياة وتلحق بالأخرى لتحياها...

الفصل السادس

هو الحزن رفيقى. إقامتى فى الدنيا رحيل وسفر بين موت
وأخر. هذه المقولة أخذت فى ترديدها، فحياتها أصبحت كالماء لا
يستقر على يد. لقد أسلمت جسدها لرماد النعوش. وتنتظر
صعود الروح.

لقد أتت حاملة الموت، تنتظر وقتها ! لقد دخلت فى صحراء
الحنان! وعوالم البحار متكئة على وحدتها، وصمتها المكتوب فى
الروح.

هل كان مقدراً لها أن تدخل فى وحشاء تلك الليلة؟

لقد أدركت الرحيل وانتظرت نعوش السماوات وبياض
البحار... الذى يلف الجسد بنسيجه، وعددت الذين سيمشون فى
الطريق الترابى الذى رصفته الأجساد بعد ذلك.

فدائماً كانت تشعر وكأنها غائبة وسط حضور... تحاول أن
تتحدى المحو...

ولن تعرف فى لغتها الحروف الأربعة ر ب م ا !! فالأرض
تحاول أن تأخذها إلى رحمها...

تلك الساعات التى مرت... طويلة...

تهيم فى الطرقات، باحثة عن نقطة ضوء ثقت القلب.

فهى تجول فى غرف الريح، بحثاً عن طائر، سكن فى عينها
ذات يوم... وقرر الرحيل!

فهي تجرب الأكوان، على أمل أن تدرك صورته التي شربت
سواد الأقمار.

كيف يتمتع بحلاوة التلاقى، من يتوقع الفراق. لقد أصبحت
الصخور شاهدة على انهياراتها، فهي لم تعد ترى صورتها على
مرايا العالم. وحدى هنا...

لا أريد أن أكلم أحداً.

الشوارع التي تؤوى قلبي طوال النهار والليل مقبرة مؤجلة،
وصديق غريب...

إننى أكتب نفسى. والموت نفسى... هو الآن صديقى الذى
أحبه... بيننا لقاءات وعهود ومواعيد ومواثيق سابقة ومؤجلة. من
سيعرفنى هنا.

كيف سيعرفون أنى أمشى فى شارع كذا... وشارع كذا...
لو سقطتُ فى ميدان الموت... من سيدركنى.

أظل أبداً لا يدركنى نهار. ولا يتنفس لى صبح. الليل سكنى
وهو الذى يربطنى برائحة التراب ونبت الصحارى. فهي تشعر.

وكأنها فى تيه... لا حدود له...

تاھت الخرائط... واختفى البشر.

الغريب یحن للغربة، یمضى وحيداً... یكلم نفسه... تتأتى
أمامه الذکریات... التوارىخ والأرقام.

وحيدة هى... تمشى على شاطئ نهر القلق، تكلم الأرض...،
لا الروح تسمعها ولا الطيور التى فوق رأسها تعرف من هى، من
أى مكان جاءت. لقد أدركت أن العالم قد تغير والموت هو افتراق
واتحاد!!

والحياة أيضاً افتراق واتحاد!

وهى ما بین الموت والحياة تعيش الموت!

الحزن، صار رفيقها.

فهى تشعر وكأنها مدفوعة إلى الترحال... بقوة وبلا إرادة...

لقد أصبحت كالبرء الدفین .

اختلطت الأسرار... صار البحر ماءً خالداً .

لا تتحدث كثيراً... وأحياناً تكره الكلام، فهى لا تقوى على
الفعل... وتلتزم الصمت، فالصمت ثورة على الكلام.

ماذا فى داخلها غیر الصمت الكامن كالبركان... ما هذا
الألم؟

طائرى یذوب فى طيور غريبة، غیر معروفة.

ومن وقت لآخر يختلط البحر بالسموات وكأنها لوحة واحدة
وتقع عيناها على نجوم بعيدة تائهة، تبحث عن مكان فى هذا
الكون الرحب الواسع. لقد أدركت بأن الموت سيدركها، والوقت
يمر... كل شئ يتغير ويتبدل.

كانت حياتها من قبل تفيض بالإرادة والاستمرارية.
وكانت تحيا حياة سعيدة مع من تحب... فقلبها كان باتساع
النهر، يرتوى منه الحبيب، يجلس فى حناياه ويجتاح كل قطرة
دم فيه...

أما الآن فكل الأشياء تعود إلى لا شئ...
والموت هو سبيلها الوحيد.
لقد أسلمت نفسها إلى الليل... الصمت والظلمة، بعدها
أخذت تتخيل مشهد الوداع .
شجن المساء كان ثقيلاً، كثيفاً.
الأيام الجميلة ذهبّت...
ولا تبقى سوى الساعات القليلة... الثقيلة.
السماء تتشبع بالسواد.
الطيور السوداء... هنا وهناك!!
فالظلمة... لا تتحول نوراً أبداً والنور لا يتحول ظلمة أبداً.

كل شيء أصبح غامضاً ومعتماً.
وفي تلك اللحظة تذكرت عبارة
«أى انتظار هذا...».

الفصل السابع

كانت تبدو فوق صخرتها مثل هيكل ثابت. أو كحيوان مائى أو نباتى. لا نستطيع أن نصنفها تحت أى مسمى بشرى.

ربما ترغب وهى ممددة فى ذلك المكان أن تستشعر الحالتين، ولا تحتفظ إلا بهما: جسدها كامن فوق الصخور التى كانت تتداخل فى بشرتها مع كل ما كانت تراه وتتخيله. وعيناها مغلقتان طوال الوقت. وعندما تفتحهما؛ تُفقد فى ضوء أبيض مائل للزرقة فيه قسوة وجموح، يتخلله تيارات وسُحب مضيئة تجمعت بطريقة موقوتة الانفجار. كانت العصافير تصرخ وتنتقل بأجنحتها الكبيرة فى تلك المغارة الزرقاء الشاسعة التى كانت هى خارجها فى الفضاء اللانهائى. وهناك امتدادات أخرى خارج هذا المكان الذى تتواجد فيه... الامتدادات تتعاقب إلى ما هو أقصى وأشد برودة. المحيط الجوى الذى يملأ تلك المغارة، والأصوات التى تتوارد إليها مثل صُراخ النوارس، كل ذلك كان مفعماً بشئ من الحزن والنقاء: هذا هو الفضاء الفلكى فهى لا تعرف بالتحديد ما تشتمل عليه هذه الكلمة من معنى لكنها ترددها؛ كوكبى... كوكبى... تلك الكلمة لها صدى فى رأسها... انتهت باكتشاف اللون الأزرق الفضى للسماء والأرض مجتمعين، كل ذلك تداخل بين جفونها المضمومة وبين جسدها والألوان والأصوات. لقد انطلق كل ذلك من محور واحد مجهول المادة، والمكان الذى تتواجد فيه؛ سهل المنال: إنه المكان الأول؛ الذى لا يحوى صفة النقاء، ولم يكن بقدر كبير من الاتساع كغيره والألوان كانت تطفئ. إنها تشعر دائماً بصعوبة الوصول

للآخرين بسبب المشاكل والعقبات، لتنتهي بها إلى ما لا نهاية
وحينئذ تنهمر دموعها من كل مكان على وجهها مختلطة بلهب
الشمس وبالمح. لو أنها تخلت عن فكرة الألم والسعادة والأمل،
ستفقد الدموع معناها؛ فهي تود أن تتخلص من الذاكرة لكي
تبعد الأحزان نهائياً؛ ولكنها في الوقت نفسه مرتبطة بها ارتباطاً
وثيقاً وستنفجر الدموع من تلك الصلة الحميمة. ولو استطاعت
أن تنسى المقارنة ودرجة اللون فلن ينتج عنها سوى شيء واحد،
ولن تعرف الخوف ولا ذكرياته أبداً وستجد وجودها الحقيقي
الهادئ. النتوءات في جسدها تتلاشى تماماً مثلما تتطلب
الساعة لكي تواصل حركتها بعض الوقت. إنها تشعر ببعض
أنظار تتركز عليها، يظهرون لها الشفقة، لكن بخلاف ما نتعامل
به مع البشر ولم يكن تأثرهم بنفس الدرجة؛ فهم لا يعرفونها...
وهذا ما كانت تريده. بعد منتصف النهار، دخلت في النوم أو
أغشى عليها. وعند تيقظها شعرت بثقل في رأسها. ولا تعرف
أبداً أين هي. لم يعد لها للواقع سوى صوته احتكاك الأحذية...
أحست بوجود أصوات خفيفة مختلفة عن التي اعتادت عليها منذ
أن مكثت في مكانها. فهي تعتقد أنها لا ترى إلا من خلال البحر
والشاطئ الذي يوجد خلف الهضبة الجالسة عليها. فنحن لا
نستطيع رؤيتها من الشاطئ الأول؛ لأنها تمددت خلف رصيف
عالٍ، والوصول إليها لا يكون إلا بالتسلق بخلاف الشاطئ الثاني
الذي يؤدي إليها ببساطة. لقد سمعت صوت سعال بجانبها
وتأكدت من وجود شخص، كما رأت دخاناً من تحتها. هذا

المدخن يتبع أسلوباً خاصاً؛ بتحريك حذائه فوق الصخرة مراراً
ليسقط من عليها الطحالب العالقة بها مما أعطاها شعوراً
بضخامة حذائه وفجأة؛ ظهر ظل ونهض واقفاً وانحنى ناحية
سور الصخرة لكي يراها لكنها التصقت تماماً بها دون أن تفتح
عينيهما. فهي مراقبة بالتأكيد ولا تريد رؤية شئ وفضلت في تلك
اللحظة الموت على فتح عينيهما. إنه سيؤذيها . لكن ماذا ستفعل؟
لقد لاحظ جسدها وإحساسها بالمرارة ولكن ماذا تنتظر هنا؟
إنها تخاف من بطش هذا الرجل بها، ولا تستطيع الهرب منه
الآن. وما عليها إلا أن ينطفئ بصرها ويموت هو الآخر. ستمحي
الصور والأفكار العالقة في رأسها. وعندما فتحت عينيهما، رأت
صورة وجه شاحب، ذي شعر رمادي بفعل الأتربة العالقة به، وله
عينان مستديرتان مسطرتان عليها بذهول. وسرعان ما اختفى
الرأس سريعاً وظنت أنه كان من وحي إلهامها... هناك كان
يوجد شخص جالس بجانبها منذ لحظات لكنه انصرف دون أن
يراهما... استمرت في إغلاق عينيهما حتى وقت الغسق، واستعادت
شفافيتها مثلما كانت من قبل. وجاءت الشمس من أمامها على
الصخور التي أصبحت جزءاً منها. وأتت الرياح إليها ودفعت
قماش ثوبها وأعطتها الشعور باليأس والقنوط، وانتشر الظل
والضوء في كل مكان... والغسق هو نقطة الحياة بالنسبة لها
والوجود قصير، في تلك الساعة التي تفقد فيها النظرات
أهميتها... وأخذت تفكر: إن نهاية العالم هذا المساء... لا شئ
مهم يستطيع أن يبقيها على تلك الأرض ولا شئ تتعلق به. لقد

فُرضت عليها فكرة بقوة، وهى بمثابة احتجاج: «أنا لا أساوى شيئاً». وأخفت جسدها وروحها مع الكلمات. لقد تحدثت حتى لا يراها أحد أو يفكر فيها. استعادت ما قصته عليها أمها مرات عديدة... هذه الحادثة كانت قد وقعت فى الماضى على الشاطئ الثانى المتصل بصخرتها... كانت بعد الظهر وفى وقت متأخر جداً. وكانت أمها تصر على رجوعها مرة أخرى إلى مياه البحر لتغتسل فيه، وانتهت بالخضوع حتى سُحبت بفعل موجة شديدة ولم تكن تعرف السباحة وحاولت الإمساك بقدم أحد السابحين فى البحر. وقصت لها أمها بأنها رأتها ترحل... وبعد مرور ساعتين؛ رأت بعض الغوغاء بالقرب من الشاطئ ولكن بعيداً جداً وتساءلت عما يحدث... فقالوا لها: «إن طفلاً غرق... كان يرتدى مايوهاً أبيض!» وظنت الأم سريعاً بأنها ابنتها! ولكن عند استماعها جيداً لما كانت تقصه عليها أمها، انتابها إحساس بالاستغراب وكأن الكلام لا يخصها بل يعنى طفلاً آخر فارق الحياة منذ ساعتين. من الممكن أن يظل هذا الطفل فى عداد الموتى لولا أن أمه سمعت أن الطفل يرتدى مايوهاً أبيض. لكن أين كانت خلال تلكم الساعتين؟ وشعرت أن حياتها لا تخصها عندما قالت أمها: «إنه طفل يرتدى مايوهاً أبيض!». بمعنى أنها لا تستطيع أن تعيدها ثانية إلى الحياة. إذاً أى شخص يستطيع أن يفقدها وجودها. دون شك لم يجرب الآخرون الموت، ولا الضياع. و لو أُلقت بنفسها من أعلى الصخرة لكانت ماتت، ومات الطفل الذى يرتدى المايوه الأبيض أيضاً. إنها تحتفظ

بداخلها من فوق صخرتها بشكل الطفل الساكن الذى لا يزال يتنفس. لقد رأيناها تحت الآلة التى أعادت له التنفس دون أن يدري. هذا الطفل وهو ممدد كان يلغى كل الوجود، وبسببه ينبض المكان بالحركة فى كل لحظة. إنها لا تختزن مستوى الصورة الأخيرة التى تجب دائماً ما قبلها. ولو تأكدت بأن خيطاً يصل الأشياء بعضها ببعض، والأشخاص والحركات والفضاء أيضاً؛ لوجدت من فوق صخرتها هذا الشكل، وعرفت هذا الطفل الساكن لكنها منسية مثله. لماذا لم ينقذوها من هذا الطفل؟ ودائماً ما تراه فى عينيها دون أن تعرف... طفل كما الموت. هذا الشكل فوق الصخرة يشبه البركة الساكنة. هو الشئ الوحيد الذى لا تراه منها ولا تريد أن تراه رغم أنها تتحدث عنه طوال الوقت. وكلما تكلمت عنه استطعنا كشفه أكثر. فهو دائماً على وشك الظهور لا ينقصه شئ ويمتص ما يدور حولها من فوق صخرتها لذلك يجب أن تفرض الحصار على نفسها وعلى الذكريات والأحاديث والأفكار. فالأحداث تنبعث منها وتتصل بها. لقد مرت بتغيرات عديدة فوق صخرتها؛ أثبتت بهيئتها عدم انتمائها للحياة وتوشك بإلقاء نفسها فى الخلاء كما أصابها شعور بإصدار صيحات وطغت عليها فكرة أنها تستحق ما يصيبها، فهى لم تشعر بوجودها الساكن إلا عن طريق نظرات الأشخاص الذين يتفحصونها. وكيف كانت نظراتهم لها قادرة على تحويلها بهذا الشكل؟ بالتأكيد لأنهم يعرفون شيئاً عنها كانت قد نسيتها، لكنهم لم يبتكروا جديداً. إن رداً عنهم وعدم

مبالاتهم تتمثلان فقط في أنهم يخفون ما شاهدوه وعرضوه... لم يتبق لها فوق الصخرة سوى سلبيتها، وشعورها بالوحدة، فالنظرة لم تعد تتبعتها... وشعرت أنها سلبت من كل شيء بفضاعة... أمام الشمس. ويفعل تحركها الخفي، انتابها إحساس بالآلفة مع الأشياء من حولها وكأنها شاهدتها ألف مرة. فهي لا تمثل سوى صدى أصواتهم. أصبح لكل شيء وزن ثقيل على الأرض والمجهود المتمثل في السكون بين السماء والأرض انتهى بعملية عرض وتوزيع بين اللون الرمادي والسحب الكثيفة!

الفصل الثامن

لقد بدت هادئة منذ وقت طويل والوقت الذي خصصته لتغيير حياتها أصبح لا نهائياً. وإنها لا تتعجل وإنما ستبحث عن شيء تنتمي إليه. إن حياتها عبارة عن فصول، وقرارات مبتورة وأشياء ليست على الوجه الأكمل. لا شيء كامل، ولا مؤكد ولا حسن. ما الذي تمنته بصبر؟ هل هو الحب؟ لا.

من الممكن أن يتوقف الحب على ذلك الشيء المرغوب باستمرار؟

كانت تريد التفكير في الاثنين معاً: حياتها والحب...

وإن لم يكن كذلك فهناك شيء ينبغي تفسيره، وهو ما سينجلي بنقاء شديد مثل الأفق أمامها. ستلتفت وتتشكك مرة أخرى: يبدو أنها أصيبت بالجنون والدليل، تمرغها كالمسولة أو كامرأة ضائعة شاردة... سيأتي رجال الشرطة للبحث عنها. والخوف الذي كان يصاحبها كأطرافها ويغشاها والذي يتواجد في كل مرة تلتقي فيها بأحد، اختفى واستوصل. إن الخوف الذي اختفى أصابها بالارتباك، وضايقها مثل السحابة الرمادية من تحتها والتي تمتص كل شيء. وتبدأ السحابة في التحرك عندما تتحول بناظريها، كل حركة توحى بأنها التقطت من قبل... كان في حياتها شيء تتبعه باستمرار. شيء ما في مقصدها ومماثل للحلم... من الممكن؟... يجب أن تقوم بعزله. لقد قطعت وقتاً لتجد شيئاً محدداً، ولكنها أظهرت سعادة في البحث، كما لو أنها تبحث في كومة من مواد البناء. كانت حياتها تفيض من قبل

بالإرادة والتتبع المستمر والمحدد أيضاً. هل كانت تريد أن تصبح محبوبة وتنسى الآخرين وبلا معاناة، ثم تصبح مثلهم؟! بالطبع... هناك مقصد دقيق وشامل فى نفس الوقت والذي أعطاها التميز، وسيعطيها القدرة على التحمل لأى شئ ولكل شئ عندما تجده. لكن ماذا سيكون... وبعد إقصاء أحداث متوقعة كثيرة، أخذت تحدث نفسها بكيفية الوصول إلى وحدتها... هكذا صيغ تفكيرها: وحدتى... وشعرت أخيراً بالعزاء... بعد ذلك مباشرة، تخيلت ممراً طويلاً لا ينتهى. لم يكن هذا الممر سوى جزء من مشهد طبيعى. إن اكتشافها وإحساسها بالسعادة اختلطا اختلاطاً وثيقاً وتعايشا مع فكرة أن المشهد الطبيعى لن يختفى وسيكون الكل. وهو حى بألوانه وبمعالمه البارزة. كان هناك شئ يوحى بالاحتراق فى معمعة التناقضات. واستيقظت وحدتها بتلك الطريقة وأصابتها بالحزن: الحصول على شئ واحد لتأمله دون أن ينقصها شئ. وعندما تبعد عن الآخرين، لن تحتاج إلا لنظرتها لتتخيل ما سيحدث لها. كل شئ سيأخذ قواماً مختلفاً... متيناً، وأكثر صلابة. لن يتبقى لها سوى نفسها، وما تتأمله دون أن يعترضها شئ. وعندما تتخيل وحدتها، تغشاها السعادة. وتتأتى إليها الذكريات... كانت تطوف هى وأندريه منذ ساعات فى يوم ممطر والوقت متأخر وشعرا بالجوع. الأمطار العنيفة دفعت واقية الريح... أغلقت عينيها من شدة التعب والضيق وتخيلت أنها ترى شكلاً مضيئاً على الطريق الأخرى وأن هذا الظل يقترب نحوهما.

وعندما ابتعدت السيارة عدلت من نفسها وهى ترتجف وتيقنت بأن الظلال لامرأة أشارت لهما فى الظلام. ورأت صديقها ذاهلاً وهو يكمل مسيرته. هل أدرك أنها امرأة؟ قطعت وقتاً طويلاً حتى تنسى ما حدث. لماذا لم تجبر صديقها على العودة؟! من المحتمل أن تلك المرأة كانت فى خطر، ولكن إذا كان هناك شخص ما يختبئ فى الظلام وهو الذى يدفعها على إيقاف العربة، فلن تستطيع أن تشير إليهما، فهما لمحاها أعلى الشاطئ عند مدخل ضيعة صغيرة... ظلت مذعورة من هذا الخيال الذى ظهر واختفى. وانتهى بهما المطاف إلى قرية كبيرة تعلوها البنايات من جهتي الطريق الرئيسية وهناك مشربان لم يغلقا أبوابهما بعد وسكان القرية الذين كانوا يلعبون بورق اللعب لم يولوهم اهتماماً بالالتفات ناحيتهما عند دخولهما الصالة التى كانت تضج بالدخان والبخار والضوضاء... إنها من أسوأ الحانات الموجودة على طول الطريق... أصابها تشنج فى الفك وشعرت بالألم عند ابتلاعها للسندويتش... استغرقت وقتاً طويلاً لكى تهدئ من نفسها فوق صخرتها، وعندما أصبحت هناك نقطة ثابتة داخلها؛ تفجرت النظرات، وشعرت أخيراً بالأصوات والظلال. كيف ستصبح وحيدة، وكم حالة ستمر بها؟ هل سيحدث هذا ببطء، وهل ستجد صعوبة عندما تترك ما شغلها وارتبطت به؟! سيكون ذلك بمثابة الاقتلاع والعزق، أو الشعور بالخطر.

وأخذت تتصور الطريقة التى ستتتابها: ستسلط النظر على أى شخص، وتتأمله لمدة طويلة. وتستمر فى الحديث معه.

ستبدأ بالفعل بسماع حديثه بينما يكون صوت الطرف الآخر المقابل لها يتفوه بكلمات مبهمه لا تعرفها والتي تصلها كهدية وهذا الصوت وتلك الكلمات لم يسمعها أى شخص... تلك الكلمات؛ بلا تفسير... لكنها تصل إليها دون حواجز أو قيود، إنها تنظر إليه دون ملل. فكيف يراها هو؟ إنه يريد أن تحبه... تيقنت أنه بلا عيون سوداء كما بدا لها فى أول الأمر؛ بل يكفيها ظله وصوته لكى تلتفت إليه، وتتحدث معه دون أن تفقده... لكنها ليست مجبرة على الإفصاح بكل شئ، وهو لا يستنتج الكلمات غير المنطوقة، ولا ينتظر شيئاً بالتحديد. فهي تتحدث كما يحلو لها بدون ضغوط أو حاجة... ومنذ تلك اللحظة؛ ظهر الآخرون مثل الغرباء. لكنها ستعرفهم إذا عادت للحياة الطبيعية وللمدينة. لم يستطع أحد أن يتيقن من ذلك مثلما تداخل وتشوش كل شئ فى حياتها وأفكارها. لم يعد لدينا شأن سوى طيفها وهيئتها الغامضة العاجزة. ما الذى يدفعها للعجلة ويشغلها لدرجة أنه أفقدها شفافيتها وحكمها على الأمور؟

أى خوف استطاع أن يجمع ويحشد كل هذا إلى أن أصابها بالعمى والصمم؟ يجب أن نمكث بعيداً عنها، ولا نعرف ماذا كانت ولا نتحدث إليها. لقد غلفتها منطقة من الغموض ومن الكلمات. إن رغبتها فى التحرر أصبحت قوية وهى فوق صخرتها. تمنى الموت حتى لا ينتابها الشعور بالخوف مرة أخرى. أصبح جسدها يتنفس سريعاً. وصخب البحر ولونه القاتم والقدرى أعطاهما الشعور بأنها على صواب. وتركت

نفسها تنزلق فى هذا الصخب وتغرق فى اللون الأزرق المخيف اللانهائى. كانت تنتابها حالات تطغى عليها مثل الحزن وتقرب إليها مالم تفعله وما لم تحياه ولم يكن هناك حواجز خارجية حقيقية لكى تلتمس لها الأعذار. وعند شعورها فجأة بالألم؛ تيقنت أنه لا شئ يستحق التفكير فيه. إن السبيل الوحيدة لحيرتها وضلالتها هو اتخاذ قرار. وظلت تنظر إلى البحر ولانعكاساته على المياه. وعند بزوغ النهار ستعود إلى منزلها. ولكنها بحاجة لكل دقيقة من الليل لكى تتفصل عما أحياه النهار! لقد رأت ثلاثة أشخاص يتقدمون ببطء على حافة الشاطئ الثانى. وكانت ظلالهم طويلة ممتدة ومتماسكة مثل أجسادهم. كل شئ أصبح كالخلاء بينما هى تتبع بعينيها المتصلة بمجال الرؤى؛ الظلال الثلاثة والرمل والبحر. لقد تخيلت رؤية فسقية ضخمة اكتسى قاعها بالرمل والمياه التى تشبه تلك المسافة فى سكونها وجمودها الواحدة بالأخرى. ولا نستطيع التمييز بينهم سوى بالألوان. إن الحواف غير المتساوية للفسقية هى بالتحديد حدود الصخرة التى ترسم شكلاً مدرجاً لمسرح وحركة الهروب التى تشعر بها من حولها والتى تبدأ من الرمل لكى تصعد إلى قمة الحجر الأحمر... هى نتاج خطوات الأشباح الثلاثة الذين من خلال ظلالهم وأمواج البحر والرمل تنتج عنهم اندفاعات بسيطة تصل الكل وتعطيه صفة التنظيم. لقد التفت إليها أحدهم ورآها. ومن بعيد جداً، رأت أنه يُشير إليها بيده وهم يتحدثون عنها بينما الذى رآها أولاً كان يتأخرهم قليلاً وظل ينظر إليها

أثناء سيره، لكن الأمر انتهى باختفائهم جميعاً وخيم الليل لكن القمر مازال هناك، لذلك لم يكن الظلام تاماً. إنها تنتظر زيارة... لا أحد يتحدث إليها أو يطلب منها شيئاً. انتظرت لساعات طويلة بصبر ودون خوف. لقد مثل هذا الحدث رجوعها إلى أرض الواقع ولن يكون قاسياً. ماذا ستكون بالنسبة لذلك الرجل؟ لن تذكر له شيئاً وهو لن يرى ما إذا كانت حسناً أم لا. لكنه سيطرح عليها السؤال دون شك، ويتساءل ماذا تفعل تلك المرأة هنا في الليل، ويفكر في المخاطرة التي تعرضت لها... استمرت في الجلوس جامدة أمامه. غير مرئية... مجرد طيف! وكل الأفكار التي ستجول بخاطره، وكل الصور تطوف فوقها مثل السحب وابل المطر، أو مثل الكتل الثقيلة الخانقة: لكنها ستتحملها دون مبالاة. سيكون وحيداً يتخبط بكل ما يدور في خاطره وذلك بفعل التشوش والبلبل التي ستبدو منها بقسوة. هذا الشخص سيكون هنا أمامها... وشيئاً فشيئاً كل المشاهد التي شاهدها، وكل المحاولات التي تخيلها للاقتراب من تلك المرأة ستتفكك وتنمحي. وعندما يفقد الثقة في كل شيء؛ وعندما يفقد الوهم الذي منحته له وحب الاستطلاع سيصبح هو الآخر وحيداً. ولن نرى وقتها سوى هيئتين مشوشتين ومنفصلتين في الليل. إذاً هي وهو سيفقدان الأهمية، ولن يبقى لهما سوى الذكرى الأولى للقائهما!

تمت

آفاق الترجمة

(يوليو ٩٥ - يونيو ٩٦)

النظرية الأدبية المعاصرة

تأليف : رمان سلدن
ترجمة : د. جابر عصفور

مدن الآخرين

أشعار
ترجمة : أحمد ع. حجازي

صحراء التتار

رواية : دينو بوتزاتي
ترجمة : موسى بدوي

الحب

رواية : مارجريت دورا
ترجمة : د. فوزية العشماوي

أساطير

تأليف : رولان بارت
ترجمة : سيد عبد الخالق

نشيد بحري

شعر : فرناندو بيسوا
ترجمة : المهدي أخريف

هبة الطوطم

أساطير الهنود الحمر
ترجمة : رابرة صادق

ازهار الشر

شعر : شارل بودلير
ترجمة : محمد أمين حسونة

مرآة الحب

نصوص : بورخيس
ترجمة : محمد عيد أبراهيم

النظرية الأدبية المعاصرة (ط ٢)

تأليف : رمان سلدن
ترجمة : د. جابر عصفور

الشعر والتجربة

تأليف : أرشيبالد مكليش
ترجمة : سلمى الخضراء الجيوسي

رامبو وزمن القتل

تأليف : هنري ميللر
ترجمة : سعدى يوسف

مداخل الشعر

تأليف : باختين ، لوتمان ، كوندرا توف
ترجمة : أمينة رشيد ، سيد البحراوي

باختين : المبدأ الحوارى

تأليف : تودوروف
ترجمة : فخرى صالح



آفاق الترجمة

(يوليو ٩٦ - يونيو ٩٧)

شعر للمكفوفين الإسبان
ترجمة : إلهام عيسى

تأليف : اميرتو اكو
ترجمة : ناصر الحلوانى

تأليف : إديث كريزويل
ترجمة : د. جابر عصفور

تأليف : مارتن لينداور
ترجمة : د. شاكر عبد الحميد

شعر : و. ه. أودن
ترجمة : د. ماهر شفيق فريد

شعر : جاك أنصى
ترجمة : محمد بنيس

تأليف : سوزان برنار
ترجمة : د. زهير مجيد مغامس

رواية : جيمس كين
ترجمة : أحمد عمر شاهين

شعر : زيجنيف هيربرت
ترجمة : عبد المقصود عبد الكريم

رواية : هاينرش بول
ترجمة : طلعت الشايب

الشعر الفارسي المعاصر
ترجمة : محمد اللوزى

قصص من أمريكا اللاتينية
ترجمة : د. طلعت شاهين

شعر : بول إيلوار
ترجمة : إدوار الخراط

رواية : يوكيو ميشيما
ترجمة : مدحت محمد عبد العزيز

كافكا، الأعمال الكاملة - ١
ترجمة : الدسوقي فهمى

مجموعة نقاد فرنسيين
ترجمة : د. هدى وصفي

عراق الضوء

التأويل والتأويل المفرط

عصر البنيوية

الدراسة النفسية للأدب

هبوط الليل

الغرفة الفارغة

قصيدة النثر

ساعى البريد يدق الباب هوتين

قصر الضحك

الملاك الصامت

مصباح الذات

أنا الآخر

السريو المائدة

همس الأصوات

الدودة الهائلة

النقد الأدبي



آفاق الترجمة

(يوليو ٩٧ - يونيو ٩٨)

غزليات : حافظ الشيرازى
ترجمة : د. إبراهيم الشواربى

اغاني شيراز (ج ١)

رواية: كارل تشابك
ترجمة : حسين العامل

حرب مع السمندر

تأليف : نيتشه
ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد

هذا هو الإنسان

نصوص : جورج حنين
ترجمة: بشير السباعى

منظورات

غزليات : حافظ الشيرازى
ترجمة : د. إبراهيم الشواربى

اغاني شيراز (ج ٢)

رسائل: كافكا
ترجمة : الدسوقي فهمى

رسائل إلى هيلينا

نصوص : هنرى ميشو
ترجمة : سامى مهدى

اكتب إليك من بلد بعيد

أشعار : تيد هيزر
ترجمة : سهيل نجم

السقوط على الأرض

نصوص : أندريه بروتون
ترجمة : صلاح برمدا

بيانات السوربالية والأوانس المستطرفة

تأليف : روجيه جارودى
ترجمة : نورا أمين

سوجز تاريخ الاتحاد السوفيتى

تأليف : تيودور رتشتين
ترجمة : عبد الحميد العبادى ومحمد بدران

تاريخ المسألة المصرية

تأليف : دكليم بيرنز
ترجمة : محمد بدران

الديمقراطية

تأليف : مجموعة كتاب قصة
ترجمة : علاء الديب

امراة فى الثلاثين



آفاق الترجمة

(يوليو ٩٨ - يونيو ٩٩)

تأليف : ثيوفراسط
ترجمة : عبد الغفار مكاوي

كتاب الطباع

قصص : فولفجانج بورشرت
ترجمة : سمير مينا جريس

شدو البلبل

تأليف : ميلان كونديرا
ترجمة : رانية خلاف

الطفل المنبوذ

روايتا : ويللا كاث
ترجمة : ايزابيل كمال

عدوى اللدود وأحلى سنين

شعر : جاك بريغير
ترجمة : سامي مهدي

الصراع مع الملاك

رواية : كاترين دوريشو
ترجمة : شيرين محمود الخطيب

نهاية العالم هذا المساء

في الأعداد القادمة

محاكمة ترايس

شهر العسل المر

التراث والتطور

الحرير

لماذا نقرأ الأدب الكلاسيكي

قراءة الرواية

فن الرواية

الغول



إشارات

المؤلف : كاترين دو ريشو

روائية فرنسية ولدت عام ١٩٥٠، درست علم النفس وتوغلت في عذابات البشر. كتبت عدداً من القصص وحصدت جوائز كثيرة رغم صغر سنّها. كتبت (نهاية العالم هذا المساء) عام ١٩٨٨ ونالت جائزة الكتاب في فرنسا تقديراً لها.

الترجمة : شيرين محمود الخطيب

ليسانس أداب لغة فرنسية ١٩٨٩ جامعة عين شمس. لها ترجمات من اللغة العربية إلى الفرنسية، وترجم نصوصاً شعرية في برنامج سحر البيان بإذاعة الشرق الأوسط.

الفنان : عصمت داوستاشي

فنان مصري سكندري، تخرج في فنون جميلة اسكندرية ١٩٦٧ وهو نسيج وحده وسط الفنانين المعاصرين إذ يثور على ذاته دائماً وعلى نمطية الحياة من حوله، فيتفرغ للفن وحرية الإبداع. ولوحة الغلاف من معرضه (وجوه) التي حاول فيها التعامل مع شكل الوجه البشري كواحة من الأسرار لاستكشاف كنوزه الجوانية .



رقم الإيداع

٩٨/١٥٠٨٩

المركز المصري العربي

ت : ٥٨١٥٦٠٧

نهاية العالم هذا المساء

فى واحدة من الروايات المهمة أو «اللارواية» أصلاً، تهيم بنا كاترين دو ريشو فى سرد ضبابى ناعم بلا أى أحداث تقريباً، يشى بعالم امرأة وحيدة تم هجرها منذ يومين، فهى تفقد هدوءها وسكينتها وسلام أحوالها، تسير حول البحر لا ترى إلا ألوانه الباهتة ويأسها الشاحب يغلفها معه:

(كنا نرى تلك المرأة، ونظراتها متجهة إلى ما لا نهاية تجاه جذر شجرة، أو بقع من الصداً تعلو أحد الأبواب أو الحوائط... فى حاجة إلى التنقل بحثاً عن مكان ما، أو لإعادة انتعاشها... وتكمل سيرها. تركت، نفسها واقفة فوق المرفأ يلفحها ويحرقها الهواء المالح لساعات طويلة. كان عليها أن تبذل مجهوداً لكى تتحاشى الأماكن التى عرفها معاً، فهى بمثابة حياتها التى تفقدها الآن. خلال أيام سيتوحد مع الطرق والأماكن والمقاهى، سوف تجده فى كل شئ... وعليها أن تبحث عن مكان جديد لا يحمل آثاره.)

هكذا الحال بالمرأة، وهى تعيش أو تدبر الخلاص، الخلاص من أيما وضع وإلى أيما وضع تصير عليه:

(استغرقت وقتاً طويلاً لكى تهدئ من نفسها فوق صخرتها، وعندما أصبحت هناك نقطة ثابتة؛ تفجرت النظرات، وشعرت أخيراً بالأصوات والظلال. كيف ستصبح وحيدة، وكم حالة ستمر بها؟) ★

C'est la fin du monde
ce soir

stx.
914
26
3

BIBLIOTHECA ALEXANDRINENSIS



0403806